مختارات فصول

سحر توفيق

# أن تنحدر الشمس

١٢

www.alkottob.com

# مختارات فصول

سلسلة أدبية شهرية

تصدر عن

الهيئة المصرية العامة للكتاب

رئيس مجلس الإدارة

د. عزالدين اسماعيل

إشراف

سليمان فياض

تصميم الغلاف : حسين ابو زيد

الاشراف الفنى : راجية حسين

يناير ١٩٨٤

www.alkottob.com

# أن تنحدر الشمس

قصص

سحر توفيق

www.alkottob.com

# المحـــتويات


| | |
|---|---|
| الجهات الأربع | ٢ |
| زيارة المدينة القديمة | ٣٤ |
| لحظات من السير فى الظلام والنوم والحديث والصحو | ٣٨ |
| البحث عن متاهة | ٤٤ |
| الطريق.. متسع ولا شيء يحده | ٥٠ |
| الغـيرة الحـب المـرض الألـم السـلام الرحمـة | ٥٨ |
| أن تنحدر الشمس | ٧٣ |
| دمـــــية | ٨١ |




www.alkottob.com

# الجهات الأربع

للنهر جهات أربع.

من الجنوب يأتى، وإلى الشمال يمتد.

وعلى بريه الشرقى والغربى يفيض.

**الجهة الغربية**

النهر المقدس يأتى من باطن الأرض، حاملا معه الخصب والنماء، يعلو فيغمر به الوادى جميعًا، يغسل التربة السوداء، ويعود فيهبط بأدران كل عام، ليلقيها فى البحر الواسع.

تبتهل الأرض وتضحك إذ اغتسلت وبوركت..

ونحن نريد أن نعبر إلى الضفة الأخرى..



www.alkottob.com

نركب المركب ونبحر، نخوض الطريق الطويل بين عيدان القصب والذرة، حتى نصل إلى الهضبة الغربية...

وقبل أن نصعد، نريح تحت نخيل عم على.

وهو... بقامته السوداء الممتدة، يلقى فوق رؤوسنا بالظلال.

نفترش أرضه، ونلتحف حكاياه.

قال عم على :

حبيبتى الوحيدة رحلت عنى منذ زمن طويل، كنت ألقاها فى الليالى المظلمة عند الطاحونة القديمة، كنت أحكى لها عن الحب وأقبلها وتقبلنى، وكنا نحكى الحكايا الحلوة سويًا، وننسج من أحلامنا نورًا يضيئ لنا طريق العودة فى الظلام والسكون، لكن حبيبتى رحلت عنى فى ذات فجر، لقيتها عند الفجر وكنت أعرف أنها راحلة، وحينذاك حكت لى حبيبتى الوحيدة الحكاية كاملة.

حبيبتى الوحيدة قالت :

سأحكى لك ما يحدث تمامًا.

أنام فى الليل وأحلم كثيرًا جدًا، أقوم فى الصباح وأذكر كل ما حلمت به أو بعضه، أو ـ أحيانًا ـ لا أذكر شيئًا، وأظل أعتصر رأسى حتى أتذكر.

وعند ذلك، تفاجئ رأسى الحكاية بكاملها، فأعرف ما حدث وما يحدث، وربما ـ أحيانًا ـ ما سوف يحدث.



www.alkottob.com

ومن هنا انطلق، أتحدث مع الناس، وأعمل أى شىء، لأننى أعرف.

من هنا عرفت أن ذلك سوف يحدث.

حقًا، إن كل الأمور كانت تشير إليه، وكانت الفتاة السمراء النحيلة قد قالت لى ما يشبه ذلك، وكل الأحداث كانت تسير فى نفس الاتجاه، لكننى حلمت به.

حلمت فجأة، فجأة وأنا نائمة بالليل، ولم يكن هناك أحد على الإطلاق.

حلمت بأننا نسير فى الطريق، والازدحام كان شديدًا، كنا نجرى ونصيح وننـدفع إلى الجسر، وكانت الأصوات تأتى من مذياعات كثيرة، مع الناس، وفى السيارات، والحافلات، تصيح بأن على الجميع أن يتوجه إلى الجسر.

وفعلاً، كان كل شىء يتدافع إلى الجسر.

و....

أتذكر حكاية دودة القز ؟

كان كل دود القز يتدافع فوق بعضه، ويريد أن يصل إلى أعلى مكان، ليعرف ما يكون هناك، ولكن الحقيقة أنه لم يكن هناك أى شىء، سوى أن الذى يصل لنهاية كومة الدود والحجارة، كان يقع من الناحية الأخرى.

وهذا ما كان.

آخر الجسر كان يسقط فى الماء.



www.alkottob.com

ولم يكن هناك أية فرصة للعودة، ولا لإخبار الآخرين، لـذلك تـرددت قلـيلاً ونظرت حولى.

وهناك كان صوت آلفه يصيح : ألقى بنفسك، إنه النيل حقًا.

وعندما صحوت، كان الضوء يأتى من ثقوب النافذة ضـعيفًا كلـيلاً، ولكننـى نظرت حولى، تذكرت ما حدث بكامله، وعرفت كـل شـىء، قـضى الأمـر ومـا عـاد عندى ما أفعله.

وفى الصباح قلت لأبى : أن اللعنة سوف تحل.

نظر إلىّ طويلاً ولم يجب.

وأخبرتنى أمى، أننى إذا كنـت رأيـت فـى الليـل قطًـا أسـود، فإنـه ـ هـى تعرف ـ يحمل روحًا شريرة.

وقلت لها : نعم لكن ذلك لم يحدث.

وأخيرًا قال أبى : يا ابنتى، الأمر ما عاد كمـا كـان فـى الماضـى، لقـد سُـدَّ المجرى منذ زمن، وهكذا فقد انتهى الأمر.

وعندما ذهبت إلى النهر فى ذلك الصباح، نزلـت مـن الحافـة العاليـة حتـى سطح الماء، وتركت ساقىّ فى المياه، وبعد قليلٍ من الوقت سمعـت النهـر يهمـس لى بسرٍ عظيم، قال : اذهبى وتخضبى، فغدًا تتزوجين.

بكيت بشدة، وعدت إلى البيت، خضبت يدى وقدمى، ولم أقل شيئًا لأحد.

لكن أمى أتت ونظرت إلىّ وقالت : يا بنيتى، لا تذهبى.



www.alkottob.com

قلت وعيناى لا ترتفعان عن قدمىّ ورأسى منكس : لكن الأرض ما عادت تأتى بخير كثير.

فأجابتنى : لكنها تظل هى الأرض.

وقالت لى أمى : لا تخافى يا ابنتى، عندما كنا صغارًا، صغارًا جدًا، أتى قريتنا رجل عجوز فى ذات صباح، وقف هناك عند رأس الطريق المؤدى إلى دروب البلدة والآتى من المزارع، وكان يحمل قربة ماء، هناك وقف يسقى الناس، هذه القربة لم يفرغ الماء منها أبدًا، ظلّ يسقى الذاهب والآتى، وتجمع حوله أهل القرية جميعًا، وجعلوا يشربون من قربته، وينظرون إليه وإليها، يراقبونها، لكن الماء لم يفرغ منها أبدًا، جعلت النساء يحضرن أطفالهن جميعًا حتى الرضع، ليسقونهم من ماء هذه القربة المباركة، حتى أظلمت الدنيا، وبدأ الناس ينفضون وكل منهم يدعوه للمبيت عنده وهو يأبى، ورحل فى الظلام، لأته ـ كما قال ـ يجب أن يشرب منها المصريون جميعًا، قبل أن يموت بعد عام ونصف العام، فلم يعد له ما يكفى من الوقت.

وسألتها : وهل شرب منها المصريون جميعًا ؟

شردت لحظة وقالت : أظن ذلك، لقد كان يعرف ماذا لديه، وكم من الوقت عنده، وكان لديه ما يكفى، وكان فى عينيه من العناد ما يكفى لكى يقاوم كل أشباح الموت حتى يؤدى مهمته.

ثم نظرت إلىّ طويلاً، وأخيرًا قالت : أنا شربت منها.

قلت : وهل شرب منها أبى ؟



www.alkottob.com

قالت : نعم، كنت طفلةً صغيرةً، وكان أبوك فتىً يافعًا، يحكى لى أبوك أنه شرب منها، وأنه رآنى وأمى تمسكنى فى يدها آتيةً بى لتسقينى، إنه يذكرنى، ولكنى لا أذكره فى ذلك الوقت، أذكر فقط ذلك العجوز بلحيته البيضاء وعينيه المحاطتين بتجاعيد كثيرة، والقربة الجلدية يصب منها الماء فى وعاءٍ من الفخار، والناس كثيرون حوله، وبعيدًا عنه ينظرون إليه.

قلت : حسنًا، لكننى لم أشرب.

قالت : ماذا يهم ؟ فى ذلك الوقت كان المصريون بحاجة إلى مثل ذلك، أما اليوم فلا ينفعهم إلا ماء النيل.

قلت : نعم، لكنه أصبح قليل الماء، لم يعد يفيض.

جلست على الأرض، ساقاى ممدودتان، ويداى قابضتان على الحناء، وحكيت لها ما قال لى الفتى الأسمر فى المساء عند الطاحونة القديمة، وحكيت لها أيضًا ما حدث بيننا من أشياء صغيرة.

قلت لأمى : سأحكى لك يا أمى ما يحدث لى، إننى أنام بالليل فأحلم، وحينذاك أعرف كل شىء، ما حدث وما يحدث، وأحيانًا أيضًا ما سوف يحدث.

وبالأمس حلمت بالنهر يدعونى إليه، ولذلك يا أمى، أتخضب اليوم، وأريدك أن تنتهى من تطريز ثوب زفافى اليوم، وارسمى يا أمى على صدر الثوب شمسًا كبيرةً، تتناثر إشعاعاتها فى كل مكان من جسدى عندما أرتديه، وطرزيه يا أمى بكل الألوان الضاحكة.



www.alkottob.com

أخذتنى أمى فى صدرها، وراحت تهدهدنى، وتحكى لى حكاية الأمير الذى عبر البحور السبعة من أجل حبيبته الحبيسة فى البرج الذى يرتفع سبع طوابق، ولا تحوطه أبواب ولا نوافذ، إلا باب واحد يحرسه سبعة مردة من الجان، وعلى باب كل طابق من طوابق البرج السبعة يقف سبعة مردة آخرون أكثر شراسة وقوة.

نمت قبل أن أسمع الحكاية إلى نهايتها، ولكنى كنت أحلم بها فى الليل، فأعرف كل شىء عنها، ورأيت الأمير عندما قتل المردة السبع الأوائل فعرفت أنه سينتهى من الآخرين جميعًا.

وعندما شق الخيط الأبيض السماء، جلست فى فراشى، ووجدت أمى ساهرة تطرز الثوب على ضوء شمعة كليلة.

نظرت لى أمى، ووضعت الثوب أمامى، وقالت لى : لقد انتهيت يا بنيتى، ولكنى أريد أن أقول لك كلمة واحدة، أنا شربت من القربة المباركة، وأنت تذهبين إلى النيل ليشرب المصريون جميعًا.

قلت : أعرف يا أمى.

قالت : تستطيعين ألا تذهبى.

قلت : بل سأذهب.

بكت وقالت : فليباركك الله.

ارتديت الثوب وخرجت، كان أبى بانتظارى، وقال لى : يا بنيتى، تستطيعين ألا تذهبى.

قلت : بل سأذهب يا أبى.



www.alkottob.com

بكى وقال : إذن اذهبى، وليباركك الله.

وها أنا أقف بجوار الطاحونة الآن، أحكى لك ما حدث بكامله، وبينى وبين النيل عشرون ذراعًا لا تزيد، والآن سأذهب، ألم أقل لك أننى أنام، فأحلم، فأعرف كل شىء ؟

أذهب الآن إليه، ليحملنى إلى البر الغربى، ثم يعيدنى فى الحياة الجديدة، ليحتضننى، ويحنو علىّ، ويسكننى بجواره على شاطئه الأسود، أدلى قدمىَّ إليه كل يوم وأنزل إليه، فلما أنزل إلى أعماقه يحولنى إلى سمكة صغيرة تسبح فيه، ليقبل كل ما فيها، ثم يعيدنى إلى الكوخ الصغير حيث أنام، ورائحته تدغدغنى، وصوته الهادئ يهدهدنى، والاطمئنان يغمض لى عينى برقة وهدوء.

ها أنا ذى أمامه، عروس صغيرة جميلة، أذهب إليه بكل الشوق حقًا، لعله يعود فيخصب الأرض كما كان يفعل فى الماضى البعيد.

أريد أن أقول لك كلمة واحدة وأخيرة، إذا أردت أنت أيضًا أن تعرف، فنم، واحلم.

وقال عم على : وهكذا نمت وحلمت.

ورأيت سكان الضفة يخرجون جميعًا قبل الشروق فى صمت، يتبادلون النظرات، وكأنما كانوا على موعد، خرجت العروس من بيت أبيها، ترتدى ثوبًا أسود مطرزًا بشمس ذهبية أضاءت الفجر بخيوط من الأشعة المضيئة بكل ألوان الطيف.



www.alkottob.com

سكان الضفة ساروا خلف العروس، عند باب كل بيت يقفون، وينادون الأطفال بأسمائهم، والرجال والنساء بأسماء أطفالهم، ويغنون أغنية، يأتى الأطفال ضاحكين، وأقف وحدى بعيدًا أبكى، عند باب كل بيت تخرج النساء بثياب زاهية جميلة، مرتديات حليهن جميعًا، فلما يعاودن المسير يزيد صليل الحلى، فلما انتهوا من بيوت الضفة جميعًا، اتخذوا طريقهم بين المزارع المخضرة بلون باهت، موكب بكل الألوان يتقدمه ثوب مطرز بالشمس الذهبية، والأشجار تميل وتسأل، ويجيبها الغناء والبكاء، عند كل شجرة يقفون، ويحكون، وتجاوبهم همسات الأوراق الحزينة، حتى اقتربت من عريسها، ورفعت يديها المخضوبتين بلون قان، حينذاك، التفت الجميع عائدين.

وعندما التفتنا، رأينا الأشعة الحمراء تمتد من آخر الأرض، وتعبر السماء فوق رءوسنا، وبدأت أطراف القرص الأحمر الكبير تظهر، ونحن فى طريق العودة، نحمل أعواد القمح الجافة، وعندما ظهر القرص بكامله، رأيتها تجلس فى عين الشمس، ملكة متوجة.

**الجهة الجنوبية**

أردت أن أكتب باللون الأخضر أحرف السماء والأرض.

ولم يكن هذا كافيًا.

وبحثت عن السر الدفين فى كل الأماكن الممتدة والمحدودة.



www.alkottob.com

ولم يكن هذا كافيًا.

وسردت بين الأسطر الضيقة والمسطوحة حكايات الأطفال والكبار، حكايات النساء والرجال، حكايات الشمس والروابى، حكايات النهر الوحيد المستمر حتى آخر الأرض.

وكان لابد أن أذهب إلى آخر الأرض حتى أحكى حكاية الرجال الذين رسموا الشمس والحدائق والآدميين.

وهناك، كان النهر بلا أسوار، لذلك كان واسعًا وبلا نهاية، يجرى بلا حزن، ويلمس الضفتين البريتين بكل الحب والرقة، يحمل الطين إلى الشمال ويلقيه على الأرض الجوعى، وبكل الشجاعة يلقى بنفسه فى البحر الكبير.

وعبرنا إلى البر الغربى.

وهناك جلسنا تحت نخيل عم على.

نفترش أرضه، ونلتحف حكاياه.

قال عم على :

وعرفت نساء كثيرات، ورحلت مع نساء إلى أراضٍ أخرى، لكنى كنت دائمًا أعود، ما أحببت بعد ذلك سوى الطين.

قالت امرأة ذات يوم وهى تحكى لى :



www.alkottob.com

عندما أحببتك فى اليوم الأول، أردت أن آتى معك إلى آخر الأرض، وأريتك الأرض التى أحبها، وهناك بنينا بيتنا، وزرعنا القمح على شاطئ النهر، وعندما كان النهر يفيض، كنا نصعد إلى الجبل، حتى تغتسل الأرض، ويأتى القمح فى العام التالى بأعواد طويلة، وسنابل فى لون الشمس الصيفية.

وفى الصباح كنت تخرج إلى النهر الذى يمر بجوار بيتنا، تقف عند الجسر وتشهد الخيل والجاموس فى طريقها لتستحم، وتظل تتأملها طويلاً، وهى تسبح، ومعها الرجال يغسلونها ويداعبونها.

وعندما تعود، حاملاً بعض الأعواد الخضراء من شاطئ النهر، كان وجهك يتبدى لى حاملاُ آثار الشروق، ومنبسطًا كوجه الماء السارى فى النهر الذى يمر بجوار بيتنا.

حتى كان ذلك اليوم.

أتيت متأخرًا للمرة الأولى، وعندما نظرت إليك رأيتك قد تغيرت، وعندما التقت عيناك بعينى، حاولت أن تقول لى كل شىء، لكنك لم تستطع، وظننت أننى أسألك، لكننى لم أفعل، تركتك وغادرت المكان، ذهبت إلى المقهى الذى لا تعرفه، وجلست فى صمت أرقب اللاعبين، مرت الساعات الطوال، وأنا أعدها، وعندما عدت، كنت أنت تنتظر، ولم أعرف أبدًا، لماذا كنت تنتظر.

يومها قلت لى :" أحبك وحدك وأنت امرأتى، وليس هناك من امرأة أخرى لدى، أحبك وأعرفك أكثر مما تعرفين نفسك، أعرفك وأنا معك، وأنا لست معك، أحبك وأنا أفعل كل الأشياء، أحبك، وأنا أمشى، وأنا أعمل، وأنا أنام، وأنت كل



www.alkottob.com

شىء لى، أعرف ما يحتويه رأسك، وأنا أراك، وأنا لا أراك، أعـرف فـيم تفكـرين، وأعرف ما تحبين وما تشتهين، أعرفك.

وأما هى، هى ككل النساء، ليس لها منى أى شىء، وأنا لست لها، أنا لك وحدك."

هو ليس لها، هو لى وحدى، هو ليس لها، قال ـ هو ـ ذلك لى، أعرفه أكثـر من كل الأشياء ويعرفنى، وهى له ككل النساء، ليس لها منه أى شىء، لأنه ـ هو ـ لى وحدى، يحبنى ويعرفنى.

كان ذلك ما قلت، ولكنه كان كافيًا، دفنت أحزانى فـى داخلـى، وسـادنى الصمت دائمًا، كل يوم تزيد ساعات غيابك حتى أصبحت دائمًا تأتى متأخرًا، وأنـا أجلس وحدى أروى الزروع القليلة وأرعاها، وأعد لك الطعام، وأسأل نفسى، نفـسى فقط، ولا أسأل أحدًا آخر، ولا أجيب، حتى أصبحت وقـد نـسيت الكلمـات كيـف تقال.

حتى كانـت ذات ليلـة، وفـى البلـدة عيـد، وفـى بيتنـا آخـرون كـثيرون، يرقصون، ويضحكون، أتيت متأخرًا كعادتك، لكـن لأول مـرة، علـى غـير عادتـك، تحدثت برقة، واعتذرت عن ذلك، والأغرب من ذلك أنـك كنـت مرحًـا، لأول مـرة أراك ترقص، لكنك رقصت كما لم يرقص أحد من قبل، الزينـات بـدت غريبـة فـى عينى والأضواء والناس، وفى النهاية كنت لا أفهم، وجدتنى لا أفهم، أنظر إليـك، وصوت الطبل يهز رأسى هزًا، حينذاك دفعت الصوت بعيدًا، بكل ما بى مـن شـدة وقوة، ونظرت إليك، لكنك لم تنظر إلىّ، وحينئذ عرفت.



www.alkottob.com

كنت أفهم تماماُ ما الذى تعنيه عيناك عندما تنظر، لذلك كنت أفهم عندما نظرت إليها، وبعد ذلك وجدتك تنظر إليها فى كل الأيام، وفى كل المرات التى كانت تغيب فيها كنت تذهب فى الطريق لتلقاها مصادفة، تنتظرها عند الجسر، وعندما تمر عليك تصيبك الدهشة، كأنك تراها للمرة الأولى.

فى ذلك اليوم لا تعود إلىّ، بل ترحل معها إلى حيث تشاءان، كأنما أنتما حبيبان يلتقيان للمرة الأولى.

عندما خرجت مع أول رجل أحببته لأول مرة، ذهبنا إلى حديقة كبيرة، وظللنا نجرى، ونلقى بجسدينا على الأرض الناعمة، ونتدحرج، وعندما انتهى اليوم فوجئنا به وقد انتهى، وعندما أفقنا تذكرنا أيضًا أننا نسينا أن نأكل وأن ندخن، طول اليوم.

والآن أتخيلكما كل يوم، فى نفس ذلك الموقف، مع الفارق الوحيد، وهو أننى اليوم لا أحس بالسعادة.

اليوم لم يعد كما الأمس، فقد تغيرت الأشياء.

البناء الكبير مقام فوق الربوة المرتفعة، رأسه فى السماء وجذوره فى الأرض، وأطرافه تمتد لمسافات بعيدة، تحت قدميه تربض السفن والأرض والحجارة، أراه فى الصباح والمساء، وأمد إليه يدىَّ ولا يرانى، أصعد إليه ويبتعد عنى، أعانقه ولا يحتوينى، أجلس عند أحجاره السفلى، وأصمت.



www.alkottob.com

انظر إليها ودعها تنظر إليك، أطل النظر فماذا يعنينى ؟... لو كنت قد وعدتها، فماذا يهم ؟ لو كنت أرسلت إليها، أو تنتظرها، أو تنتظرك، أو آتية، لو كنت قد ذهبت ولم تعد لمرات كثيرة... وفى كل مرة يطول الوقت حتى أصبح أطول من أن أنتظرك، فذهبت أنا أيضًا.

ركبت السفينة، وتحليت وتزينت، ونزلت إلى ظهر المركب، وحيدة كنت، وكل الناس كانوا سويًا، أما ذلك الرجل الجالس وسط رفقائه، فقد كان ينظر إلى، كنت أعرف كيف أتحدث إليه وكان هو يعرف، تحدثنا وتغير كل شىء، إذ ذاك رأيت البحر والسماء، ورأيت السفينة، رأيت الناس والدفء والسكون، رأيته، مرة واحدة فى حياتى رأيته، امتدت لأيام لا أعرف عددها، وأعرف فقط أنى رأيته، أجلسنى بجواره وعانقنى، أحاط كتفى وصدرى، وأحاط كل ما بى، نظر لى فقط مرة واحدة ونظرت إليه، ورأيته.

جلسنا على ظهر السفينة وكنا سويًا، سقانى الخمر بيديه وعانقنى، أطعمنى التمر حلوه ومره، أحاطنى بالدفء، وفى النهاية، كانت السفينة تحط على الشط.

نزلنا من السفينة وكنا سويًا، ذهبنا إلى هناك، جلسنا عند أحجاره السفلى، وهناك تحققت الرؤيا.

لا شىء فى العالم مثل ذلك، يبتسم لى وابتسم له، ونبتسم لكل الأشياء، لكن الشمس كانت مشعة جدًا، أضاء شعاعها جدرانًا خفية ما كان لنا أن نراها، وحين رأينا، نظر كل منا إلى الآخر، وتبادلنا الأسرار الحزينة، حينذاك عانقنى وعانقته، وبكينا.

وهكذا تغيرت الأشياء...



www.alkottob.com

وهكذا ألفت رجلاً آخر، رغم أننى عرفت أنه فى ذات يوم سيرحل عنى، قبل أن تشرق الشمس.

وهكذا تعذبت كثيرًا، لكننى عرفت أيضًا أنه إذ يرحل تعود أنت إلىّ، ولكنى ما عدت أريدك أن تأتى، يجلس بجوارى فى الخلاء، ويلفنى بالدفء، ويحكى لى ألف حكاية.

ولم تكن الحكايات قد انتهت عندما كان راحلاً، وكيف تنتهى الحكايات ؟ لكنه رحل، وقبل أن يذهب بلا عودة ذهبنا سويًا إلى الهرم، وجلسنا عند قدميه، واستلقينا ننظر إلى السماء القاتمة فى الليل، والنجوم القليلة تتحرك ببطء شديد.

عدت إلى بيتى وحيدة.. كما خرجت وحيدة عدت وحيدة، أضأت الأنوار كلها، ولكنى لم أشعر بالدفء، جلست أقلب فى أشيائى وأشيائك الباقية عندى، ونمت وكل شىء حولى، ورأيت فى نومى دثارى يطير بعيدًا، فلما بحثت عنه لم أجده، ظللت أبحث عنه، وأسأل الناس فى الطرقات والحوانيت البعيدة، وأخيرًا وجدته، لكنه كان متسخًا ومهترئًا، بكيت كثيرًا ولم أعرف ما أفعل به، خفت من عيون الناس وهى تنظر إليه، عدت وأخفيته لئلا يراه أحد وعندما فتحت عينى كانت الشمس فى وسط السماء، وكنت أنت هناك، أخيرًا تأتى إلىّ، ولكن اليوم لم يعد كالأمس، فقد تغيرت الأشياء.

اليوم لم يعد كما الأمس، فقد تغيرت الأشياء.



www.alkottob.com

النهر ما عاد يفيض كما اعتاد فى كل عام، انتظرت الأرض، لكنه ما عاد يأتى.

اجترت أحزانها فى صمت، حتى تراكمت عامًا بعد عام، وما عادت تجرؤ على الضحك، ولا عادت تنبت الزروع المباركة.

مرضت بأزرع ذابلة، ضعيفة.

اليوم ما عاد كالأمس، فقد تغيرت الأشياء.

أخيرًا تأتى إلىّ، أخيرًا تنتظر، وتأتى إلى، ولكنى أراك اليوم أبعد من أطراف الجدران الكبيرة الممتدة، أسألك الآن فلا تجيب، أعرف الآن ما حدث تماما، ذلك الحلم الغريب بالعودة، وعندما وجدت الأشياء التى أضعتها كانت متسخة ومهترئة، أخفيتها فى دولابى تحت أكوام الثياب والمفارش، واليوم تأتى إلىَّ، ما الذى عندى لأعطيه لك ؟ لدىّ بعض الطعام، ومأوى إذا أردت، لا تجب، فقط انظر إلىّ، كتبك الملقاة فى كل مكان، لا أعرف ماذا أفعل بها، والأشياء المتسخة المهترئة دفنتها تحت الجدار.

**الجهة الشمالية**

فى الحلم رأيت حبيبى، جناحاه يحملانه نحو الشمال، أدعوه لكنه لا يجيب، أدعوه ولا يأتى.

فى الحلم رأيت السماء تضيئ بألف لون، ألف لون يطفئ الظلام.



www.alkottob.com

والشجر فى الحلم ينمو ويخضر، وتعلوه الزهور، لكن آخر الجسر يسقط فى المياه، وجموع الناس والسيارات تأتى من الجانب الآخر، النسوة المتشحات بالسواد وكل الجموع، وبلا توقف.

نلقى بأعمارنا فى أحضان النهر المقدس.

قال عم على :

كل واحد فيهم يذهب معها هناك، وليس هناك من لا يذهب، وحده أو مع غيره، أنا أيضًا مثلهم، أذهب كما يذهبون، أفعل كما يفعلون، لكن فى الحقيقة أنا لا أدرى ماذا يفعلون، لاشىء كما يبدو، لا شىء.

مفيدة، امرأة الشاعر، كل ما فيها هو لامرأة، حتى ضحكتها المتسعة بطول مفيدة وعرضها، ضحكة هى لامرأة، حتى كلماتها اللاذعة والرقيقة، وخطواتها القوية، ولسانها بين شفتيها، وثوبها القديم والجديد، وحزنها، وغضبها، كل شىء فيها هو لامرأة.

وشاعر مفيدة رجل، عنيف ومنافق، متمرد وكذاب، رقيق وغامض، فارس وقاسٍ، شهم وثائر، نذل وشجاع، وكل شىء فى شاعر مفيدة هو لرجل.

قال عم على : مفيدة قالت :

كانت حكاية طويلة، طالت أكثر مما يجب، ولكن... دعنى أحكى لك ما أستطيع، ربما أستطيع أن أصدق، ربما، وفى الحقيقة، الصدق الوحيد هو أننى لا أعرف.



www.alkottob.com

امرأة الشاعر أنا، بين ثديى يبيت، لكنه، فقط، يبيت، فبالله عليك ماذا أفعل ؟

ومن هو الساذج ؟ أنت إن صدقتنى ؟ أم أنا ؟ إن استطعت أن أجعلك تصدقنى ؟

الأطفال، نعم، هو كما قلت لك، الصدق الوحيد.

كنت طفلة صغيرة، عيناى لا تفهمان، شعرى مبعثر، وأبى قد مات، أبى تزوج امرأتين، لذلك كان لى كثير من الإخوة، إخوتى كلهم رجال، وأنا الوحيدة امرأة، لذلك دللتنى أمى، كانت تحتضننى بالليل، وتنظر لى بالنهار، تصفف لى شعرى، وتلبسنى ثوبًا جميلاً، صدرى نبت مبكرًا وكبر بسرعة، أسير فى الطريق، كل الرجال ينظرون إلىّ، وأخوتى يضربوننى، وزميلاتى يضاحكننى ويحكين لى عن الجنس، أما ذلك الرجل الغريب، فقد رأيته فى بيت جيراننا، ولا أعرف ما الذى جعلنى أتزوجه، ربما لأن أمى قد ماتت، وربما لو كنت أحببته، لكنت ذهبت معه إلى آخر العالم، لكنى لم أحبه، فقط أحببت أولادى، ولم يحبونى بقدر ما أحببتهم، فبعد قليل من الوقت، تركونى وذهبوا.

عندما ذهب زوجى إلى آخر العالم قال لى : تعالى معى.

حينذاك قلت : لا أدرى.

لكننى ذهبت، هناك السماء غريبة، والأرض، والبيوت، والناس، لكننى ذهبت، الشمس هناك ليست شمسنا، ولا النباتات والأشجار، ولكنى ذهبت.



www.alkottob.com

الأشياء والآدميون ينظرون إلىّ، وأنا أحس بأنى بعيدة، أعمل، آكل، وأشرب، وأخرج فى عرض الطرقات، الإسفلت بلا رائحة، والسيارات تروح وتجئ بلا حب، أذهب إلى عملى وأترك أولادى فى الشارع، أولادى زهرات صغيرة، دافئة، وتحمل كل الضوء، أتركهم فى الشارع وأذهب إلى عملى، الأشياء والآدميون ينظرون إلى أولادى وأولادى ينظرون إلىّ، نظراتهم فقدت معانيها، يشيرون إلى السماء والأرض والبيوت وكل الأشياء، لكنها كانت غريبة، ولذلك، كان لابد من أن أعود.

هنا، تحت الشمس أضعهم، ألفهم فى صدرى وأكبرهم، يدفئون وينمون فى التراب، يترعرعون كالنباتات الأليفة، وأنا ابتسم وأنظر إليهم، وأريهم الخضرة والنهر المتسع، والناس، يمتد الدفء من حولهم، ويهدهدنى، لكنهم ليسوا منى، قالوا لى هذا وذهبوا.

ما أسوأ أن أكون منهم وهم ليسوا منى.

هذه هى عذاباتى، إذن قل لى من هو الساذج ؟ لا تقل، فلم انته بعد، كيف تزوجته، رجل لا يعرفنى، ويتركنى النهار والليل، وفى آخره يأتى ويريد أن يمارس معى الجنس، ولكنى لا أستطيع.

لا أستطيع أن أفعل الجنس معه وهو سكران.

ولا أستطيع أن أفعل الجنس وأنا غضبى، ولا وأنا متوترة، ولا وأنا لا أحبه، ولا وأنا أعرف أنه لا يريدنى لأننى أنا، النساء يملأن الأماكن كلها، ولكن أنا، لا.



www.alkottob.com

وأفعل الجنس معه وأنا لا أفهم.

ولكنه رحل، وأولادى تركونى وذهبوا، فهل الساذج هو أنا ؟ لا تقل، لقد انتهيت الآن، ولكنى لم انته بعد.

قال عم على : شاعر مفيدة قال :

مفيدة ليست امرأتى، ولا أنا رجل لها، وليست امرأة لأحد غيرى، كانت امرأة ذلك الرجل،كانت، وأما أنا فشاعر، لم تنجب الأرض شاعرًا مثلى، ولا السماء، قرأت كل الأشياء وفهمتها جميعًا، وفى يوم ما سأتزوج، ولكن ليست مفيدة، سأتزوج امرأة أخرى، سأتزوج عذراء صغيرة، عذراء صغيرة، وعندما سيحدث ذلك ستعلم، وسيعلم كل الآخرين.

قال عم على : مفيدة قالت :

امرأة الشاعر أنا، لكنه لا يشتهينى، اشتهيه ولا يشتهينى، جربت كل الطرق، صنعت له الأحجبة من كل الأنواع، ارتديت له أحلى الثياب، جربت معه كل فنون النساء لكنه لا يشتهينى.

إخوتى كانوا يضربوننى، وزوجى كان يضربنى، وأولادى لم يضربونى، لذلك تركونى وذهبوا، وهو لا يشتهينى.

أنجبت من الأبناء ثلاثة رجال، أحببتهم كما لم تحب أم أبناءها، احتويتهم وربيتهم، أعطيتهم كل ما عندى، تحولت من أجلهم إلى رجل، وامرأة، وأم، وكل ما يريدون.



www.alkottob.com

وعندما بلغ أكبرهم السادسة عشر، قال لى أننى لست بأم.

وقال لى : أنت تفنين من أجل لا شىء، أنت مصرية، وأنا لست بمصرى.

وعندما رحل، صرخت حتى اهتز كل جسدى وارتجت جدران رأسى، ولم يسمع صراخى أحد.

ولم يبق لى إلا اثنان.

لكنه أتى.

وصادق من ؟ صادق ابنى الثانى. ابنى الأول مضى، وابنى الثانى صادقه هو، ويا للعجب حين يصبح بيتنا بيته، وابنى صديقه، وأول من يعرفه النساء، هو.

نزل معه إلى كل الأماكن التى لم يرها أبدًا، عرف مصر كما لم يعرفها أبدًا، وجن، جن ولم يفهم، جن لأنه لم يفهم، ولهذا لم يبق.

يعود إلىّ معه فى آخر الليل، سكران، أو مسطولاً، وهو يضحك.

ينام ابنى ويبقى هو، يحدثنى عن كل الأشياء، وأحدثه، وأشكو له، وأخيرًا نتحدث عن الحب، لكنه يحدثنى كأحسن ما يكون الحديث، فقط، ولما قلت له أننى احتاج إليه، أجابنى : أنت لست بحاجة إلى أحد، أيًا كان هذا الأحد، وأيًا كان السبب.

لم يفهم، لم يستطع أن يفهم، رغم أنه رجل.

حتى رحل ابنى الثانى، وكان هو معى، ولا يفهم.

ينام صغيرى وينام هو، وأنا وحدى، وفى الليل فى الظلام، استيقظ فزعة، من الأحلام الحزينة، ولا أرى شيئًا حولى، أقوم أسير فى البيت بين الحجرات،



www.alkottob.com

وأنظر إلى باب الحجرة التى ينام فيها، والتى كانت لابنى، ومرات افتح الباب ببطء، وأنظر إليه، نائم بلا صوت، وفى ليلة فزعت فيها حتى صرخت، جاء مسرعًا، أضاء الحجرة ونظر إلىّ، وربت كتفى، وراح يطمئننى، بكيت، ولأول مرة أخذنى فى صدره، وربت على ظهرى حتى نمت، ونام هو، وفى الصباح فتحت عينى على الصغير يوقظنى، وينظر إلىّ وهو نائم بجوارى، قمت وأعددت إفطارنا ثلاثتنا، ونظرت فى مرآتى، فوجدت عينىّ لا تزالان حمراوين.

وبعدها، كان ينام إلى جوارى، نتحادث طويلاً قبل النوم، ثم ينام، وأنا أظل أنظر إلى سقف الغرفة وقتًا طويلاً، فلا أرى شيئًا.

ومرات أدلف إلى فراشى ويجلس هو على الأريكة فى الركن البعيد بين يديه كتاب لساعات طويلة من الليل، أتقلب على جنبى، حتى أصبحت أدعوه كثيرًا فيجيبنى بصوت شارد، وعندما يأتى إلى النوم أداعبه طويلاً، وما جنيت سوى نظرات مختلسة إلينا من ابنى الوحيد.

حتى رأيته يأخذ ابنى معه خارجًا مرات عديدة، يذهبان سويًا ويعودان سويًا، وحين اسأله يقول لى : لا تخافى، إنه ابنى أيضًا، وصديقى.

وحين اسأل ابنى ينظر لى بدهشة، حتى جاء يوم قال لى : وماذا تريدين ؟

سكت، وقال : أحاول أن أرى الأشياء كما ترونها، وهو يحاول أن يكون صديقًا لى، حسنًا فليدع لى الوقت كى أعرف، حتى الآن لا أستطيع أن أفهم، أمصرى أنا؟

فلما اجتمعنا ذات يوم على مائدة العشاء، كنت أرى نظرات ابنى إليه، وأنا أقدم له الطعام، أحسست به وهو يتلقاها بشعور غريب.



www.alkottob.com

فلما كنا سويًا عدت اسأله، فقال لى : هل تعرفين ماذا طلب منى اليوم ؟

قلت : ماذا؟

قال : قال لى أنه يريد أن يمارس الجنس.

وصرخت فى خوف : لا، لا تجعله يفعل ذلك.

هز كتفيه وقال : ولم لا ؟ لقد كبر.

هذا ما كنت أخافه، أن يأتى إلىّ قائلاً أنه راحل، وهذا ما حدث بعد أيام قليلة، قلت : لا، وعدت فقلت : لا، ولكنه لم يهتم لى.

قلت له : لم يبق إلا أنت، رحل أخواك ولم يبق إلا أنت.

قال : لست وحدى، لديك هو أيضًا، هو منك، مثلك، وأما أنا، فلا.

رحل ابنى الثالث، وأصبحت وحدى تمامًا بلا أحد، ولا حتى هو، يأتى إلىَّ كل مساء، ويحادثنى، يأتى دائمًا، فقط يأتى، أحكي له ويحكى لى، أقول له كل ما حدث لى فى يومى، ذهبت إلى عملى، وعدت، لقيت أناسًا كثيرين، ولم ألق آخرين، وذهبت إلى أماكن وقلت كلامًا، وسمعت أحاديث، وضحكت، وبكيت، وعدت إلى بيتى، ولم أطق البقاء، فعدت لأخرج، وأسير فى الطرقات، وأجلس فى المقاهى، وأدخن المخدرات، وأضاحك رجالاً كثيرين، وأعود آخر الليل مع بعض أصحابى، نكمل الضحك والحكايات الغريبة، وحين يأتى يجلس معنا، ويضاحكنا، حتى تبدو تباشير الصباح، فيرحل من يرحل، ويبقى من يبقى، لينام فى أى مكان، وهو ينام جانبى ككل يوم، ويظن الجميع أننا متحابان، ويقولون أننى امرأته.



www.alkottob.com

كل يوم نفس الشيء، حتى أملّ أحيانًا، وأرحل وحدى إلى البلاد البعيدة، وأعود بلا تغيير، أبنائى أيضًا تغيروا، وما عادوا كما كانوا.

حتى كانت تلك الليلة الغريبة، ماذا حدث ؟ لا أعرف، لكنى سأحكى لك ما عرفت عنها، وكل ما وعيته آنذاك.

جاءت ليلة رأس السنة، وجاء معها جمع صغير من الأصدقاء، كل يحمل قنينته، وأعددت بعض الأطباق الصغيرة، وأخذنا نسمر ونضحك ونرقص.

وقبل أن ينتصف الليل بقليل جاء، جلس فى ركن وحده، وبدا كأنه لا يرى أحدًا.

كنت أرقص مع أحدهم، لكنى كنت ألمحه يراقبنى فى هدوئه البعيد، نظرات هادئة، لكننى أحسست بها تحمل الكثير، انتابتنى حالة من المرح، وتماديت فيها، لكن، بعد قليل من الوقت، أحسست بالتعب.

اقتربت الساعة الحزينة، ساعة الحب والوداع.

تركتهم جميعًا، ووجدتنى أذهب إليه، ناولته الكأس وقبلته، قبلنى ولم يقل شيئًا، كان يزداد انطواءً وصمتًا، أخذت أشرب وأنا أنظر إليه، وما كنت أريد إلا أن أشرب وأنظر إليه.

ثم تذكرت.

جذبته من ذراعه وأنا أبكى، لقد تذكرت الآن.

أولادى، كانوا هنا، لابد أن أريهم له، لابد أن يراهم عندما تدق الثانية عشرة.



www.alkottob.com

بدأت أبحث عنهم فى كل مكان، ولم أجدهم.

حينذاك قلت له : لا أجدهم، كانوا هنا، يكبرون تحت الشمس، يترعرعون فى الأرض السوداء، كنت أضعهم فى الساحة الواسعة، فى الهواء النقى، الناس يحوطونهم بالرعاية، لذلك كانوا أصحاء وأقوياء، هنا كنت أكبرهم فتنمو أعوادهم، تصبغهم الشمس، وتلون وجوههم، أما هناك فقد أصبحوا فى مثل لون أبيهم، بلا لون.

أنظر إلى أماكن لعبهم، تركونى وذهبوا، أعطيتهم كل شىء، فأخذوا كل شىء وذهبوا، وتركونى بلا شىء.

أحببتهم، أراهم فى كل الرجال، كل رجل كأنه ابنى، أحبه، وأريد أن احتويه، لكن كل الرجال لا يفهمون أريد منهم فقط الحب والفهم، لا أريد نقودًا، لا أريد حماية، لا أريد سوى الحب والفهم، لكنهم لا يفهمون.

حينذاك، بدأت الساعة تعد اللحظات الأخيرة، ارتفع صوت المرح بين الأصدقاء، وارتفعت دقات الطبل فى رأسى، تبادلنا القبلات جميعًا، وفتحنا عيوننا معًا على اللحظات الجديدة.

وبعد قليل بدءوا يرحلون واحدًا بعد الآخر، حتى رحلوا جميعًا، ولم يبق إلا أنا، وهو.

ليس هناك من شىء يشبه ابنى، ولا ابنى يشبه أحد، هو فارع وعظيم، هو جميل وقاهر، وقاسٍ كما الحجر الصلد، صوته فى أذنى أحلى الأصوات وليس



www.alkottob.com

هناك من شىء مثله، يشيح عنى ويؤذينى، ولا أستطيع أن أحتويه كما كنت يوم حملت به.

أنت أيضًا حملت بك، وضعتك فى بطنى وعانيت بك الآلام كلها، كل شىء فيك هو، لكننى امرأتك، تعال معى أعطيك كل ما تشتهيه، تعال انظر كيف أستطيع أن احبك، سوف أسقيك كأسك بيدى،أطعمك حتى تشبع، وعندما تنام بعد أن أذيقك الحب كأحلى ما يكون، سوف أحنو عليك، أغطيك أدفئك، وأربت على رأسك وأنا احتويه فى صدرى، اعلم أنه لن تعطيك امرأة فى الأرض مثلما أعطيك، تعال أجعلك ابنًا لى، ورجلاً كما لم يكن رجل من قبل.

ليلتها، حملنى إلى السماء، طار بى كملك عظيم بين الجنات، أذاقنى كل الفاكهة التى حرمتها أعوامًا طويلة، جلس بى على ضفاف الأنهار الأسطورية، أنهار الخمر والمياه العذبة، سقانى بيديه عصير التمر والعنب، وأرانى الأطياف الجميلة بأحلى الألوان، أطياف الضياء، وملائكة الجنة، وأحلام السحب الوردية، لمسنى، وضمنى، وعصرنى، حتى سلت شرابًا أرويه وأرتوى، فأنبت خضارًا قاتمًا حيًا.

وفى الصباح رحل.

وبعدها، كان يأتى ويرحل، ويتغيب كثيرًا، وأقول أننى لن أفتح له مرة أخرى، لكنه كان يأتى، فأفتح له، واحتضنه، وعندما يرحل أبكى، وفى كل مرة، قبل أن يرحل، يقسم أنه لى، ولكن بعد أن يذهب أعرف أنه ليس لى، مرات



www.alkottob.com

كثيرة، حتى مللت من حسابها، نزلت من بيتى، وأقسمت أن يعود فلا يجدنى، وقفت طويلاً عند شاطئ النهر، ثم تذكرت أن المغيب قد قرب، وأنه قد يأتى هذا المساء.

الشمس اختفت فى الناحية البعيدة، ولم يبق منها إلا لون المياه الأحمر الداكن، وبقايا اللون فى الأفق، والسيارة تجرى مبتعدة عن النهر، وأنا أظل أنظر إليه حتى اختفى، ولم أعد أرى إلا السماء الرمادية، والمبانى المتربة القذرة.

هذه هى، القاهرة.

المدينة العجوز الحزينة.

كل ما حدث هو أننى لم أكن أريد الذهاب إلى البلاد البعيدة.

وجوه الأطفال كانت تعذبنى، وفى كل يوم، كنت أصرخ ألف صرخة وصرخة، وكنت ألعن ألف لعنة ولعنة، ألعن الأشياء التى أحببتها جميعًا.

لم أكن أريد الرحيل وحسب.

والآن أعرف كم كان البقاء غاليًا، وكم كلفنى، لكننى أردت البقاء، وسأظل أريده، حتى لو كنت انتظره كل مساء ولا يأتى، حتى لو أمضيت الوقت أنظر إلى أشيائهم وفرشهم، حتى لو أتى ذات ليلة وذهب، وأنا أظل أنظر إليه من خلف الستائر المسدلة.

هاهو ابنى الآن يرحل.



www.alkottob.com

ما أسوأ أن أنجب الأبناء، وأكون منهم، ولا أحد منهم يكون منى.

**الجهة الشرقية**

أريد أن أضع الشمس فى مكانها الأول، من حيث كانت تبزغ فى أول الخليقة، وحينما كانت تضيء الأرض كلها، والسماء، وقبل أن يأتى العمالقة العظام ويقذفوا بها إلى الغرب.

فى ذلك اليوم، سرت البرودة فى ضلوع الجبال، وضعضعت مسالك الأرض الحزينة، الزهرات الصفراء الكبيرة حنت رءوسها على أعناقها الذابلة، وانتظرت المطر.

نامت الأغنيات الرقيقة الحنون على شفتى النهر المستمر بلا عودة.

والنهر يأتى من باطن الأرض.

ونحن نمضى الليل نشرب الخمر ونتعانق، ونتعلم السير، نضع رءوسنا على الأرض، وهى تحنو علينا، وتحكى لنا حكاية.

" لكى تتعلم الخطو، لابد لك أن تترك العصا"

هكذا كانت تحكى لنا الأرض الحكاية.

قال عم على :

سأقص عليكم يا أبنائى قصة الأيام الأربعة الأخيرة، ولكنى أريد قبل أن أقول لكم السر بكامله أن أبين لكم كيف أرى الأشياء.



www.alkottob.com

إننى أنظر إلى العالم من حولى، فأراه متسعًا، وممتدًا بامتداد الجهات الأربع، فى كل امتداد منها لانهاية بلون الشفق الوردى، ولكن، المعتم بالسحب الرمادية.

هكذا هو العالم.

وهكذا أراه فى مفترق الطرق.

ليس أمامى إلا أن اتجه إلى جهة واحدة، فالطريق دائمًا، بلا عودة، وإذن، فلكل جهة من الجهات الثلاث الأخرى أحد ثلاثة : القلب، الكبد، الرحم.

أما البذرة الوحيدة التى أحفظها معى بلا أمل فى الإخصاب، فإننى لابد أن أرسل بها إلى الجهة الشرقية، وأذهب معها.

فى اليوم الأول، عرفت أننى سأترك قلبى يتخذ امتداد الجهة الغربية، حيث روائح التراب المعتق.

أخذت قلبى من صدرى، وأمسكته بيدى، وأودعته أسرارى وقصص الحب الأولى، وأغانى الصبايا والصبية القديمة، وعلقته فى مقدمة الحافلة المتجهة إلى الغرب، أوصيت قائد الحافلة أن يرعاه ويسقيه بالسائل الأخضر كلما ضمر، حتى إذا وصل إلى الهضاب العالية، ووجد الأرض المظلمة المجدبة، يبحث عن حبيبتى الوحيدة، وحين يجدها يسلمه لها لتزرعه فى كوخها، عندما تعود لتعبر النيل، فإذا ما أتت من رحلتها اليومية فى أحضان النهر المقدس، فستجده فى المساء، وقد أنبت لها زهرة جديدة.



www.alkottob.com

وفى اليوم الثانى، عرفت أننى سأدفع كبدى إلى الجهة الشمالية حيث البحر الوسع. علقتها بطوف صغير، وسلمتها إلى النهر الهادئ الذاهب إلى الشمال، وكتبت عليها اسمى، أعطيتها بركاتى، وأملى أن تصل إلى البحر، فتنتشر فيه خلايا دقيقة، تتصل بكل أجزائه، وتتبخر معه لتعود مع المطر.

وأما الرحم، فقد عرفت فى اليوم الثالث أننى سأحمله إلى طريق الجهة الجنوبية، علّ المنبع العظيم يخصبه، فينبت للأرض جميعًا.

سلمته للنوتى، ليعلقه بطرف الشراع، حتى تلقاه الرياح الآتية من الشمال، فتدفعه إلى المكان الذى يأتى منه النهر، وأوصيت النوتى أن يضعه إذ ذاك فى باطن الأرض، حتى ينبت فى كل عام خصبًا يعود مع النهر إلى الوادى.

وفى اليوم الرابع أخذت وجهتى إلى الشرق حاملاً البذرة الوحيدة، وكلى شوق وأمل أن أصِلَ إلى الأرض التى تشرق منها الشمس.

كنت أعرف أننى سألقى أهوالاً كثيرة، ولكن آمالى كانت أكبر، حزمت رحالى، وحملت سترتى على كتفى، وأثقالى على ظهرى، وقمت لأسير، وعندما قمت وجدتنى محنيًا، ولكنى علمت أننى بعد أميال قليلة أضع أثقالى، ولم أعلم بأننى سأحمل غيرها، ولكن هكذا كان.



www.alkottob.com

عند كل عطفة أو شارع، وجدت شيئًا ملقى، أو إنسانًا متعبًا، أو حيوانًا جريحاً، حتى ما عدت أقوى على المسير، فأجلس فى أحد الأركان تحت ظلٍ ما، وأتزود بعضًا مما أحمل من حكايا.

قال عم على :

حبيبتى الوحيدة حكت لى حكاية، كان ذلك فى صباح يوم من أيام الله.

أطلّت الأشعة الوردية على العالم، وحبيبتى فتحت عينيها، وأطلّت علىّ، وحكت لى حكاية.

قال عم على : حبيبتى الوحيدة قالت :

أردت أن أكتب باللون الأخضر أحرف السماوات والأرض، فلما جلست لأكتبها وجدتها كلها حمراء، بلون وردة حديثة الولادة، وضعت القلم، أقسمت أن احتويها جميعًا حتى أكبر وأُشبَحُ مثل نوت، انتشر بجسدى وذراعى حولها، وأزرع قدمى فى الأرض، حتى تمتد جذورهما إلى أعمق الأعماق.

وعندما أردت أن أكتب باللون الأخضر أحرف السموات والأرض، غمست قلمى فى الزروع الجديدة، ورسمت وجه إنسان.

وكان هذا كافيًا.

حينذاك ألقيت بجسدى فى المركب الصغيرة، وأبحرت إلى الضفة الأخرى، وكنت أريد الوصول إلى الأرض التى تشرق منها الشمس.



www.alkottob.com

سرت فى الطريق المنحدر، أصعد وأنزل بين الصخور، وعندما قطعت مسافة مائة ذراع، بدأت أتعرى.

ورأيت بعد مائة ذراع أخرى أن أتعرى أكثر، وبعد مائة ثالثة ورابعة وخامسة، رأيت أن أتقدم إلى الأرض التى تشرق منها الشمس، وقد تعريت تمامًا.

وعندما تعريت، وجدتنى أرفع رأسى، وأرسل شعرى وأعدو، انتزع ذراعى من العتمة وأعدو، بقدمىّ العاريتين، من الحقول أطلع وإلى الرمال الممتدة أعدو، وفى آخر الطريق، أجد الشجرة الكبيرة التى تثمر كل صباح شمسًا جديدة.

وكلما كنت اقترب، كان جسدى يطول ويمتد، وأطراف أقدامى تلامس الأرض بحب واشتياق، وتعود لتمتد فى الهواء طاوية من الأرض أذرعًا جديدة.

وعندما وصلت إلى المنبع العظيم للنهر، اغتسلت فى المياه المقدسة، وعاودت المسير، والماء يقطر من جسدى ورأسى، يقطر قطرات كبيرة، وكلما لامست الأرض قطرة منى نبت مكانها نبات مبارك.

قال عم على :

وهكذا نمت.. وحلمت.

وعرفت أنه لهذا خلق الله العالم.

القاهرة ـ سبتمبر ١٩٨٠



www.alkottob.com

# زيارة المدينة القديمة

أشارت بذراعها إلى الشارع القديم، هبطت من المنحدر الترابى، رأت الدكاكين والبيوت المقامة على كل ناحية، نظرت بداخل كل الدكاكين، رأت الناس الجالسين أمامها وبداخلها وعلى المقاهى والسائرين فى الطريق، والمطلين من النوافذ والشرفات، ورأت عيونهم تترقبها أو لا تترقبها دلفت من العطفة إلى الطريق المتسع، رأت المستنقع يملأ الشارع، النباتات ارتفعت فى وسط الطريق من خلال المياه النتنة، البيت لا يزال قائما فى مكانه هناك، الشرفة الصغيرة وكل النوافذ مقفلة، الباب الحديدى الصغير نصف مفتوح ملأه الصدأ، نظرت إليه، توقفت، سارت من العطفة الأخرى، سارت فى الشوارع الصغيرة.

( فى ذلك اليوم البعيد كنت آتى هنا كل يوم، اشترى الخضر من الدكاكين الصغيرة، ادفع الباب الحديدى الصغير الصدئ، اصعد السلم، ادخل الشقة، اصنع الطعام وآكل، انظر من الشرفة إلى السماء المتسعة، أقول للبقال صباح الخير، وأقول للجزار وللحلاق ولبائع الخضر وللجيران ولكل الناس صباح الخير، أضع رأسى فوق الوسادة وأسمع صياح الأطفال وأصوات المارة وغير المارة، أقرأ الجريدة الصباحية وكتبًا أخرى، لكننى عندما ذهبت لم أعد مرة أخرى، لم يكن مُهمًا أن أعود مرة



www.alkottob.com

أخرى، لست أدرى هل كان مهمًا أو لم يكن مهمًا، لكن الذى حدث هو أننى عندما ذهبت لم أعد..

فى ذلك اليوم كانت الطائرة تقوم بعد ساعة، أنظر خلف السور الحديدى الصغير، كثيرون يتحركون فى كل مكان وأنا لا أبكى، أعود أسير فى الطريق الخالى والليل يملأ السماء والأرض، السيارة الكبيرة تمر بسرعة وأنا أنظر إلى أعمدة الضوء تتركها وتذهب إلى الخلف، والشجيرات الصغيرة، أقف فى وسط الميدان وأرى الأعمدة الحديدية ذات الضوء الأصفر واللمبات الكبيرة، الناس والضوضاء والسيارات والأتوبيسات والفندق الكبير، انسى كل شىء وأفكر فى الأشياء التى تجِدّ، اشترى كتابًا وأجلس على المقهى وأقرأ، أشرب القهوة وأنتظر أى شىء قد يحدث ).

عادت من العطفة إلى الطريق المتسع، نظرت إلى البيت مرة أخرى، سارت إليه، دفعت الباب الحديدى الصدئ، أصدر صريرًا وهو ينفتح، صعدت السلم ونظرت إلى الباب، رأت القفل الكبير، طرقت طرقة خفيفة، طرقت طرقة أخرى، طرقت طرقات كثيرة، طرقت بشدة وبكلتى يديها، بحثت عن المفتاح فى الحقيبة، بحثت عنه فى الأركان وبين درجات السلم، خلف الباب الحديدى وفى كل مكان.

( كنت أضع المفتاح فى جيب الحقيبة الداخلى، لكنه لم يعد موجودًا، أيضًا لا يوجد أحد فى الداخل ليفتح لى، من يوم أن ذهبت وأنا لا أدرى أين أضع المفتاح، لعلنى ألقيت به فى النيل ذات مرة أو من نافذة الأتوبيس وهو سائر، ولا أدرى من وجده، لكننى أظن أننى وضعته على المائدة فى المقهى فى ذلك اليوم تمامًا



www.alkottob.com

وتركته، فأنا لم أكن أعرف هل أقرر أو لا أقرر أن أعود، وفى الحقيقة لقد نسيت هذا الأمر ولم أكن أفكر فى أى شيء، ولكنى أريد اليوم أن أفتح الباب وأدخل، أظل أطرقه قد يفتح لى أحد، ولكن أظن أن أحدًا لن يفتح لأنه لا يوجد أحد، أما الرجل الكبير الحجم الذى ينظر لى من الباب الآخر فلا أعرف من هو، ولا أعرف ماذا يريد منى، كنت أريد أن أمنعه من أن يمسك بيدى وأنا أكرر الطرق لكنى لم استطع، طرقت بيدى الثانية فأمسك بها أيضًا، نظرت له وكنت لا أعرف ماذا يريد، قال لى: اذهبى. قلت له : صباح الخير. لكنه قال لى مرة أخرى : اذهبى. قلت له : أننى كنت أقول لكل الناس صباح الخير، وأنا أقول لك صباح الخير وهذا البيت بيتى، لكن الذى حدث هو أننى منذ ذهبت لم أعد، ولست أدرى من وضع هذا القفل الكبير، وأنا أريد أن أدخل لكن مفتاحه ليس معى، ولم يعطنى المفتاح أحد، وقد بحثت عنه فى كل مكان ولم أجده، فهل هو وقع فى المستنقع الكبير الذى نبتت به النباتات القاتمة الاخضرار ؟ لم يكن يوجد هذا المستنقع الكبير فى هذا الوقت، كان يوجد مستنقع صغير فقط، ولم تكن قد نبتت به بعد النباتات القاتمة الاخضرار. لكن الرجل الكبير الحجم قال لى مرة ثالثة : اذهبى.

قلت له : يمكنك أن تسأل البقال والجزار والحلاق وبائع الخضر والجيران والأطفال والمارة، سيقولون لك أننى كنت أقول لهم صباح الخير، ولم يكن واحد منهم يقول لى اذهبى، وكل الذى أطلبه منك أن تترك يدى حتى أطرق الباب فربما يفتح لى أحد. لكن الرجل قال للمرة الرابعة : اذهبى ).

نَزَلَتْ السلم، خَرَجَتْ من الباب الحديدى الصدئ، سارت فى المستنقع، بحثت بيديها فى الماء النتن، بحثت بين النباتات، وقفت، ظل الماء يقطر من



www.alkottob.com

ذراعيها وقدميها وانبعثت منها رائحة كريهة، خرجت من المستنقع، نظرت إلى البقال والجزار وبائع الخضر والحلاق والمارة والأطفال والجيران، قالت لكل واحد منهم صباح الخير، لكن كل واحد منهم كان يقول لها : اذهبى.

الهرم ـ يوليو ١٩٧٥



www.alkottob.com

# لحظات من السير فى الظلام
# والنوم والحديث والصحو

سرنا فى مبدأ ذلك الشارع الضيق ذو الشجيرات المتتالية وبعض المبانى المتهدمة، كان يضع ذراعه حول كتفى ولا يبتسم، واستند برأسى على رقبته وتمر فوقنا شجرة وبعدها تمر شجيرة.

قال : لماذا لا تقولين شيئًا ؟

قلت : ماذا أقول ؟

حاولت أن أقول شيئًا ما فعلاً ولكنى لم أجد أى شىء، أخيرًا قلت : هل تعرف ؟ أنا أحب هذا الشارع جدًا.

وسألنى : لماذا ؟



www.alkottob.com

( فكرت أننى أحب هذا الشارع جدًا، كنت أحبه دائمًا، كنا أيضًا نسير هنا، وأقدامنا تقودنا إليه دون أن ندرى، وفى كل مرة نسير فيه نتشاجر، كان يكره نفس الشارع، كان يتهمنى بأننى أقصد المجيء إلى هذا الشارع بالذات، أما أنت فقد عرفت أنك تحبه كما أحبه، وربما لأننى أسير فيه معك.)

وكان يسألنى : لماذا ؟

( قلت لك فى هذا الوقت أننى عرفته وربما لم أكن أحبه، ولكننى الآن أعرف أننى كنت أحبه رغم كل الأشياء السيئة، ورغم كل الأخطاء التى أتيتها معه.)

سرنا حتى انتهى نفس الشارع، وعطفنا من شارع آخر متسع وساكن، عبرناه وعبرنا شارعًا متقاطعًا مزدحمًا بالسيارات.

( فى كل الطرق كنت أسير معه، حتى تلك التى نسير فيها الآن، ورغم أننى لم أتذكره أبدًا وأنا معك، إلا أنه يلبث فى فكرى كثيرًا هذا اليوم.)

قال لى ونحن نسير أن أشياء كثيرة تحدث فى هذا العالم دون أن ندرى عنها شيئًا، إن هناك أناسًا يموتون وآخرون يولدون، وأننا لا ندرى أى لحظات حياتنا أكثرها سعادة،وأيها أكثرها شقاء.

وأخبرته أن العالم كله لا يساوى شيئًا، ما دمنا لا نعرف قيمة أى شىء نلقاه ولا حتى قيمة اللحظات.



www.alkottob.com

( وفكرت فى أنه قال لى أنه يحبنى أكثر شىء فى العالم، وكان ذلك فى بدء الأمر، بعد ذلك أخذ يعاملنى بجفاء فأنهيت علاقتنا.)

وقلت له أيضًا أن أسوأ شىء فى هذا العالم هو غريزة التملك، وأنه لولاها لأصبح الناس جميعًا سعداء ولما اعتدى أحد على الآخر وحاربه ليستولى على ما يملكه، ولما دافع هذا الآخر عن الشىء الذى يملكه، وربما لم تكن لتحدث أية حروب أو أى تقسيم سياسى فى هذا العالم.

( علمنى أن أحس بالغيرة، وفى ذات يوم ذهبت لأقابله ووجدته جالسًا مع امرأة كان على علاقة بها قبلى، عرفنى بها وقال لها أننى قريبته، أخيرًا قامت وقام يوصلها وتركنى جالسة، ثم عاد لى بعد قليل ضاحكًا وسألنى ما الذى يجعلنى صامتة هكذا أكثر من اللازم ؟ )

قال لى : ما الذى تتمنين أن يحدث الآن ؟

احتضنت ذراعه التى أتعلق بها، قلت له أننى لا يمكن أن أتمنى شيئًا آخر بينما أننى معه، سألته هل يحبنى، فأجاب أنه لا يمكنه تحديد هذه المسألة تمامًا، وفى الحق أنه ما من شىء يمكن تحديده بدقة فى هذا العالم، فقد يشعر الإنسان فى بعض الأوقات أنه يحدد مسألة ما بمنتهى الدقة، ولكن يرى فى وقتٍ آخر وجهًا متغيرًا لنفس المسألة، ويحددها على هذا الأساس، وربما فى وقت ثالث يتغير نفس الشىء.

( فكرت أن هذا حقيقى، وأننى كنت أتمنى أن تكون فى حياتى كلها علاقة حب واحدة، ودائمة، ولكن الذى يظهر دائما أننى أرى الأشياء متغيرة، وهذا يغير من كل شىء.)



www.alkottob.com

قلت له : أنها حقيقة، ولكن كم تؤسفنى.

بعدها لم أرد أن أتكلم، سرنا كثيرًا جدًا، وأخيرًا قلت له أننى متعبة، وأننى أحب أن أعود، وأننى سآتى إليه فى الغد.

كنت أجلس فى مقعدى بالمترو، أستند برأسى على حافة النافذة، والهواء يضرب وجهى، ويخيل إلى أننى يجب أن أظل هكذا، وألا يتوقف المترو أبدًا، أنظر إلى الآخرين يتحركون ويتحدثون، ويخيل إلى أنهم أجسام آلية، ولا أستطيع وأنا أمعن التفكير أن أدرك ما الذى يختفى فى أعضائهم ويجعلهم يعيشون ويتحركون، ثم يتركهم فجأة جمادًا، ولم أستطع أيضًا أن أصدق أن كل هذا سيهمد ويصبح لا شىء.

كان كل شىء يمر بالنافذة، البيوت والناس والشوارع والمحال التجارية، ( فى ذلك الوقت كان وجهه يمر بالنافذة، ورأيت عينيه تنظران لى وتحتاجاننى، وتذكرت جميع الأشياء فى وقت واحد، ولم أجرؤ أن أقول لنفسى أننى فعلاً كنت أتمنى فى هذه اللحظة أن أراه، وأن أشكو إليه، وأن صدره أكثر رحابة من هذا العالم الضيق المقفل، فى تلك اللحظة قررت أننى يجب ألا آتى إليك فى الغد، وأننى يجب أن أنهى كل شىء.)

وتمنيت أيضًا أن يصيبنى مرض يجعلنى مذهولة لا أعى أى شىء ولا أهتم لأى شىء وأتصرف طبقًا لطبيعة جافة بلا أى حس.



www.alkottob.com

نزلت من المترو، وأخذت أسير فى طرق ملتوية وكثيرة، أحسست أننى أبحث عن شىء هام تاه منى فى مكان ما، وتمنيت أن أظل أبكى وأسير، وأن يظل المطر يتساقط فوق رأسى حتى أجده، وأخيرًا يئست وتوجهت إلى البيت ونمت.

( حلمت فى تلك الليلة أننى أنتظرك فى مكان ما، وأننى رأيته قادمًا بدلاً منك، جلس أمامى ونظر فى وجهى جيدًا، طلبت إليه أن يقوم ويتركنى لأننى أنتظرك، قال أنه يعلم وأنه قادم من عندك، فى تلك اللحظة رأيت جدران المقهى كلها من الزجاج، ولا يوجد مخلوقات فى الشوارع كلها، ولكنى قمت لأبحث عنك، وظللت أبحث عنك فى كل ناحية وأبكى.)

فى اليوم التالى استيقظت وارتديت ملابسى وذهبت إليه، فتح لى الباب ورحب بى، دخلت وأنا صامتة، سرت إلى المقعد وجلست، جاء وجلس إلى جوارى، وأخذنى فى صدره وراح يقبلنى، ويؤكد لى أنه يحبنى، كنت أنظر إلى كل الأشياء فى الحجرة وإلى جانب رأسه الملقى على كتفى.

قال بعد لحظات : لماذا لا تقولين شيئًا ؟

قلت له : ماذا أقول ؟

سألنى : هل تحبيننى ؟ قلت له : نعم.

قال : كأى شىء ؟ قلت : كشيء لا يمكن أن يكون موجودًا فى هذا العالم كله.



www.alkottob.com

أخذت أنظر من النافذة إلى الفراغ المتسع وأنا أدس أصابعى فى شعره وأفكر فى حلمى بالأمس.

وأخيرًا قال : هل ضايقك ما قلت بالأمس ؟

قلت : لا.

وأحسست فى هذا الوقت أن كل الأشياء تفقد قيمتها، حتى أنا.

القاهـــــرة ـ سبتمبر ١٩٧٢



www.alkottob.com

# البحث عن متاهة

فى ذلك المساء ـ وكما فى كل مساء ـ جاء ذلك الرجل الأبيض النحيل، ذو الأصابع الغريبة، جلس على نفس ذلك المقعد الحجرى، عيناه تحدقان فى نفس المكان، حدقتا عينيه الرماديتين تدوران فى حيز ضيق، تتأملان نفس الشىء، جالس متوحد شارد.

فى أول مرة رأته بادلها بضع كلمات قليلة جدا، عن الموسيقى، بعد ذلك كان لا يراها، ولا يبدو أنه يعرفها، ولا يبادلها كلمة واحدة.

جاء سعيد.

قامت معه وغادرا المكان، سارا قليلا وانحرفا إلى الجسر، لا شىء هناك إلا النهر، وبعد قليل بدأ يتحدث، تحدث عن أشياء كثيرة، عن أصدقائه وأمه وأبيه، عن العمل والإرهاق والوحدة والعالم، وعن الحب. قال لها أنه يحبها. بعد أن قال لها جميع الأشياء الأولى والبدائية، وكان ينظر إليها مستفهما، وقال لما رآها لا تجيب:

ـ هل تقولين شيئا؟

ولكن النهر كان وحده هناك.



www.alkottob.com

وقالت له حينئذ أن الحديث فى الحب هو من العبث الذى لا يجدى فى ذلك الوقت.

وحدثته عن نفسها.

وقالت له أن أول علاقة لها برجل كانت سيئة جدا، وكانت تعرف منذ اليوم الأول أنها ستنتهى، ولكنها لم تقاوم، حتى كان ذلك اليوم الذى تجمعت فيه كل الأشياء المتراكمة، فى نفس ذلك اليوم، أنهت كل شىء.

وقالت له: أحببت رجلا ذات يوم، وكان يحبنى، وكان كل شىء جميلاً حقا، وما كان هناك شىء يمكن أن يقطع الأمر.

سألها: ثم ماذا؟

قالت: لا شىء.

قال: لماذا تركته؟

قالت: لم أتركه.

قال: تركك هو؟

قالت: ولا هذا أيضًا.

قال: فما الذى حدث إذن؟

قالت: لست أدرى.

كانت قد انقبضت تماما، أبطأت خطواتها، وانقبضت يدها، سارا فى صمت. أخيرا قالت إنها تريد أن تعود.



www.alkottob.com

كانت تجلس مع صديقاتها، كن يتحدثن عن عروس البحر التى ظهرت فى اليمن، كانت إحداهن تصف ساقيها وركبتيها البارزتين، وجسدها ورأسها التى تشبه السمكة، ثم تحدثن عن الأرواح والجان، وحكاياتهم الجديدة، وآخر ما فعلنه.

قالت إحداهن: إنها علامات القيامة.

سارت فى بعض الطرقات، وكانت شديدة الظلمة، فكرت لماذا لا تصدق هذه الحكايات قالت إن الموت لا يصدق ولكنه يحدث. لم تعرف ما هو الصدق ولكنها أحست بالخوف من الظلام.

فى الصباح الباكر كانت تجلس على شاطئ النيل، بين يديها كتاب، جعلت تتذكر أيام الحب الأولى. كانت فتاة صغيرة وضعيفة، وساذجة، لكن كل شيء كان ممتعًا وجميلا، والحقيقة أن المسألة تبدو كمسألة الخبرة بمسالك الطرق، فى البداية كانت تتوه كثيرًا عندما تسير فى شوارع وسط القاهرة، وتظل تلف وتدور حتى تخرج إلى مكان تعرفه، بعد ذلك عرفت شارعا واحدا وكانت تأتى من كل الشوارع إليه، بعد ذلك عرفت كل الشوارع، عرفتها تماما، واليوم لا يوجد شارع جانبى ولا رئيسى لا تعرفه. ولكنها كثيرا ما كانت تتمنى لو تتوه، كان هذا شيئا جميلا جدا وممتعا، وخاصة أنها فقدته تماما، فكرت فى عروس البحر، وكانت تحيرها كثيرا. جاء الرجل العجوز، جلس وكان يبدو لها فى عالم آخر، وأنه مضت أيام طوال منذ رأته لآخر مرة، كانت عيناه صغيرتين ولونهما فاتح، وكانت عندما تتذكره لا تعرف اللون الحقيقى لعينيه، وقررت فى نفسها أنها فى يوم ما ستتبعه



www.alkottob.com

إلى المكان الذى يأتى منه. كان يمسك فى يده بأوراق، جعل يقلب فيها، حاولت أن تدقق النظر ولكنها لم تستطع أن تتبين شيئا. مر وقت وهى ترقبه وترقب الزوارق وترى البرج والأندلس والسيارات على الجسر.

جاء سعيد، جلسا صامتين، بعد قليل قام الرجل العجوز من مكانه، قامت واقفة، سألها سعيد: إلى أين؟ قالت: هيا بنا نتمشى قليلا.

تمشيا.

قالت: أحضرت لك بعض الحلوى.

بعد قليل بدأت تضحك وتمزح، تسرع فى سيرها أو تجرى، ثم تقف. تتفرج على الناس والنهر والشجر، جلسا فى مكان هادئ.

قال لها: ماذا بك؟

قالت: لا شيء.

قالت بعد قليل من الوقت، لا أعرف، لابد أن شيئا ما سيحدث، وحينذاك ستتحدد كل الأشياء.

سارا متوترين، أوصلها، ذهبت إلى فراشها ونامت. فى تلك الليلة حلمت أنها تخرج سرا لتقابله، ولكن امرأة ما أو رجلا رآها، حينئذ لم تدر ما الذى تفعله، ضربته بيدها على ظهره فوقع ميتا، شعرت بخوف شديد وندم وحيرة، اختبأت فى حفرة لكى لا يكتشفها أحد، لكنهم وجدوها وأخذوها فى سيارة مقفلة، كانت السيارة تنطلق بسرعة وهى تفكر، لماذا حدث ذلك، وما أسبابه الحقيقية، فلا تجد.



www.alkottob.com

والآن فإما أنها تشنق أو تسجن، وكلاهما أمر عجزت عن استيعاب إمكانية احتماله. أحست بأنها مظلومة ظلما لا حد له، وبأنها لم تذنب.

أخيرا استيقظت. كانت تحس بأشياء كثيرة تحترق. نزلت إلى الشارع وهى لا تدرى ماذا تفعل،تخيلت أنها لو رأته الآن فستلقى بنفسها فى حضنه، وتظل تبكى، وهو يربت على ظهرها، ويعرف كل الأشياء، ولا يسألها ولا يلومها.

ذهبت إلى ميدان التحرير، صعدت درجات الكوبرى، ظلت تدور فوقه عدة مرات، أحست بالتعب، وخيل إليها أن تجلس على درجات السلم. نزلت وسارت إلى الكورنيش، كان الرجل العجوز جالسا، كان يقرأ فى كتاب صغير. تمنت أن تجلس إلى جواره وتقرأ معه، تمنت أن يقرأ لها بصوت هادئ وحنون، وهى تستمع إليه وتنظر إلى الماء ولا تتكلم. بعد وقت قام، سارت خلفه، ركب الأتوبيس فركبت مثله. نزل فى إحدى المحطات فنزلت خلفه، سار عابرا الميدان، ودلف إلى شارع ضيق، ثم دخل فى منطقة لم تذهب إليها من قبل، مليئة بالحارات والشوارع الضيقة المزدحمة، ظل يسير فى أحدها ويخرج منه ليدلف إلى آخر. أخيرا وصل إلى بيت قديم اصفر اللون وباهت. دخل من باب نزل إليه بضع درجات، وكان الداخل مليئا بالظلام. ظلت تنظر لفترة إلى المدخل المظلم، ثم دارت لترجع، ووجدت نفسها قد نسيت الطريق الذى أتت منه، ظلت تلف وتدور فى الحارات والأزقة حتى انتهت إلى الميدان.

تنفست بملء رئتيها، ونظرت إلى السماء المتسعة والنور الذى يملأ الميدان ساعة الظهيرة، سارت بنشاط، تمشت وهى تبتسم لكل الأشياء والناس. نظرت إلى الساعة، كان موعد سعيد يقترب، ووجدت أن الأمر ليس مهما جدا، وقفت فى



www.alkottob.com

مكان مزدحم وهى تتفادى الشمس بعينيها، فى ذلك الوقت كانت الساعة تدق دقاتها المنتظمة، وكانت تحاول أن تتذكر ملامح الرجل العجوز، وبذلت فى ذلك مجهودًا كبيرا، ولكنها لم تستطع.

القاهرة ـ ١٩٧٤



www.alkottob.com

# الطريق.. متسع ولا شيء يحده

وقع الضوء المتوهج فى صباح أحد أيام الصيف الحارة فى عينى فاستيقظت، تذكرت فورًا ـ وأنا أنام وحدى فى الفراش ـ أن اليوم ربما يكون الأخير فى حلقات هذه الدنيا كلها.

قمت من الفراش، وقفت على الأرض، قررت أننى مازلت أحبك، لكنك بدأت تزهدنى، وكان يجب أن أرى حلا، العالم كله أمام النافذة فارغ فارغ، وكل النوافذ إما مفتوحة أو مقفلة، والناس تسير فى الطريق ولا أحد يعرف بفشلى.

يومًا ما كنت أقول لا، كنت فى ذلك الوقت البعيد لم احبك بعد، أنت فقط الذى جعلتنى أحبك، سرت إلى دورة المياه واغتسلت، بحثت عن طعام فى المطبخ فلم أجد شيئًا أحس برغبة إليه، فكرت أن أشرب لبنًا ولكنى تذكرت دسامته فى الحر فتقلبت معدتى، ذهبت إلى الحجرة الأخرى ونظرت إلى أبى وأمى



www.alkottob.com

نـائمين وأعينهمـا مغمـضة، قلـت أن نومهمـا عبـادة، ذهبـت إلى الحجـرة الثالثـة، إخوتى نائمون، بيتنا فى تلك اللحظات لأول مرة بدا بيتًا سعيدًا هادئًا.

بعد لحظات انتهى كل شيء، جاءت أختى وقالت : هـل صـنعت شـايًا ؟ فقلت لها : لا. قالت : ما أشد كسلك، لاستيقاظك قبلنا وعدم صـنع أى شـيء، لم أرد عليها، جاء أخى الطفل وقال : اعطنى قرشًا. فنهرته، استيقظت أمى ونظـرت لى فى تحسر، لم أبال وقلت لها سأخرج. قالت : إلى أين ؟ قلت لها : سأذهب إلى منى. سكتت ولم ترد، قمت وارتديت ملابسى كأى شيء، نظرت إلى المـرآة ورأيـت أننى لا أرغب فى أى ماكياج، مشطت شعرى بسرعة إلى الخلف، وأخذت حقيبتى وأنا ألفظ أنفاسى، قلـت لأمـى : اعطنـى نقـودًا. نظـرت إلى مـن أعلـى إلى أسـفل، ولأننى لم يكن معى مليم واحـد فقـد أعـدت عليهـا الطلـب، فأعـادت تلـك النظـرة المزدرية، أخيرًا قررت أن أحترم نفسى وأن أخرج كما أنا، وأننى يجـب أن أبحـث عن عمل لكى أحس بالحرية، ولكى أحس أننى ملك نفسى، وآخر شيء أتصوره أن استمر هكذا بحاجة إلى الآخرين.

ذهبت إلى منى، قبلتها وقبلتنى، كنا نقبل بعضنا كثيرًا، ولم يكن هذا دليلاً على أى شذوذ، لأن علاقتنا كانت سوية مائة بالمائة، لكننا كنـا متفـاهمتين تمامًـا، قالت لى : هل أفطرت ؟ قلت لهـا : نعـم. قالـت : مـاذا بـك ؟ قلـت : لا شـيء. سألتنى هل سألقاك اليوم ؟ قلت لها نعم، وأن تأتى معى لتراك لأنها تريد رؤيتـك، وأنك أيضًا ربما كنت ترغب فى ذلك، ارتدت ملابسها، ووقفت أمـام المـرآة، قالـت



www.alkottob.com

لماذا لم تضعى ماكياجًا ؟ فقلت أننى لا أرغب ولا أحس برغبة فى ذلك، قالت بل ضعى، ومشطى شعرك بطريقة أحسن، وأجلستنى أمام المرآة.

بعد قليل نزلنا إلى الشارع، وسرنا متجاورتين، سألتنى عن علاقتنا وقلت لها أننى احبك كما لم أحب أحدا فى حياتى، وأن ما كان لى من علاقة سابقة يبدو لى اليوم كأنه لم يحدث لى، ولكن ربما حدث لغيرى وعرفته بتفاصيله، وإننى فى ذاتى أصدق ذلك حقًا، ولو أننى أخفيت عنك أن أيًا من ذلك قد حدث لى فإننى لا أكون أكذب إطلاقًا، لأنها الحقيقة فى داخلى، وإننى أخبرك بهذه الأشياء فقط من ناحية الأمانة المادية البحتة، ولأنه ربما حدث ماديًا ولكنه الآن ـ وأنا أصدق أنه ـ لم يحدث ولم يعد يحدث لى معنويا إطلاقا، وأن ذلك ربما كان يحدث ولكن هذه العملية قد انمحت تماما ولم أعد أذكر إلا وقائع لا صلة لها بواقعى النفسى وما إلى ذلك ثم أخبرتها أنه بخصوصك فإننى أظن أننى استطعت إلى حد كبير فى وقت ما أن أجذبك إلىَّ تمامًا، لكنك بالأمس كنت تحدثنى وكنت أشعر أننا غرباء،وأن كل شىء ـ إن لم يكن سينتهى اليوم ـ قد انتهى بالأمس، وأننى اليوم تحط على أحزان العالم كله، وأننى أتمنى أن تعود تبتسم لى بلا مرارة، وأنك أنت الجانب الأقوى وأن استمرار علاقتنا بيدك، وإننى أرجو أن لا تتركنى لأنك تشفق على من انتظارك فعذابى أن ينتهى انتظارى لك.



www.alkottob.com

سكتت منى ولم ترد على كلامى هذا، كان يتولاها شعور قوى بالملل، مثل ذلك الذى كان يملؤنى، كنا نسير متجاورتين وكنت استند على رأسها برأسى وأغمض عينى نصف إغماضة، ولا أرى إلا أنت فى كل الناس.

وقفنا ننتظر المترو، وجاء شديد الازدحام فلم نركب فيه، انتظرنا الذى يليه لكنه لم يأت، جاء المترو من الناحية الأخرى وكان مزدحماً أيضا، كان رجل يريد اللحاق به وشديد العجلة ويجرى لكنه كان قد قام، قفز من باب أمسكه الازدحام مفتوحا ويبدو أنه زلت قدمه لأنه لم يكن هناك مكان يضعها فيه، وقع تحت المترو وصرخت النساء اللاتى رأينه صراخا عاليا، وذهب المترو تاركا الرجل نصفين دمه يملأ الأرض وبضع قطع متناثرة من لحمه حول الشريط، حمله الرجال بسرعة فوق الرصيف، غطوا جسده بالجرائد.

نزلنا فى باب اللوق، فكرنا أين نذهب. قلت لها أولاً أنى ليس معى أى نقود لأجلس فى أى مكان، وقررت أنها معها خمسة عشر قرشا وأننا بإمكاننا أن نتناول شيئا باردا فى حدود هذا المبلغ.

جلسنا فى أحد المقاهى، وكان موعدنا هناك بعد ساعتين، واكتشفت إننى أحس بالجوع ولم أفطر، فقلت لها ذلك، فقالت أنها أيضا جائعة وأننا يجب أن نأكل ونشرب قهوة ولكن النقود هى المشكلة، وأنه لا يمكننا أن نأكل ولا نشرب قهوة، ولا أن نشرب قهوة دون أن نأكل، أخيرًا قررنا أن نأكل ونشرب قهوة، وإنه إذا أتيت فربما تحل المشكلة، ولكن ربما لا تكون أنت أيضا معك نقود فتكون المشكلة، كنا نمزح بآلية ونضحك بعصبية ولا شىء يدعو إلى الضحك، قلت لها أن



www.alkottob.com

امرأة ألمانية تناولت ٩٠ قرصا منوما لتتخلص من حياتها ولم تمت وأن يوم القيامة لم يحدد وربما يكون هو اليوم، وأننى حلمت أنني مت وضربنى أحدهم برصاص فى صدرى غدرا وكنت أنت معى وتولانى حزن شديد، وفكرت أنك تتألم مثلى وليتنى احمل آلامك كلها، أخيرا واسيت نفسى أننى كنت بشوق شديد لأن أعرف ما الذى سيحدث بعد الموت وإننى الآن سأعرف وسأستريح من الشك، وليتنى أموت وآتيك وأنت نائم وأخبرك بكل ما حدث لى، وأؤكد لك أنني ما زلت احبك، أحسست بالآلام بصدرى تخف تدريجيا، وأننى انتقل إلى عالم آخر، لكننى أستطيع أن أتحرك فلم أمت بعد، ناديتك فقلت لى نعم.. قلت لك لنذهب إلى أى طبيب لكى لا نموت، ويشدنى حب البقاء والرغبة فى أن أستريح من شكى، إما أذهب أو أبقى لأموت، لكن أنا لا أريدك أن تموت، لذلك امسك بيدك ونقف، لكن الرجل الذى قتلنا ضحك بعصبية وقال أنا لم أقتلكما، لقد كان هذا كله مزاحا، وأنتما لم تموتا.. واكتشفت أنه ليس بجسدى أى ألم الآن، وكذلك أنت صحيح وسليم، قالت لى أن هذا الحلم لا أى جزء منه ليس تخريفيا وكله لأننى كنت أحس بالتعب وأفكر فى أشياء سيئة بخصوص المستقبل.

وأنا ألعن المستقبل فأنا لا أريده، وإننى كنت آمل آمالاً كبارًا جدًا وكثيرة، وإننى أراها الآن لا شىء، وكانت كذلك الحلم، وأتمنى أن اليوم يستمر وتبقى إلى جانبى.

جاء الطعام، أكلنا ببطء وفى صمت، لم أكن أحس بطعمه فى فمى ولكنى سآكل لأننى لم أفطر والمكان شديد الحرارة، استرخيت وأنا آكل كأى شىء،



www.alkottob.com

أحسست برغبتى تنتهى تماما فى تحريك يدى إلى فمى فانتهيت، رشفت من القهوة وكانت سيئة جدا، لكننى استمررت فى شربها، عرضت على سيجارة، فأخذتها.. أنا لا اشرب السجائر ولا أحبها لكن تولانى كسل أن أقول لا، وكنت احتوى الدخان فى فمى أخرجه من أنفى وأحيانا أملأ به صدرى ورأسى فأحس ببعض الراحة، ورغم أننى كنت معك بالأمس فقد كنت أشعر بشوق شديد لأن أراك وأناديك بأحلى الأسماء وأدلل اسمك وكل شىء فيك، كان باقيا ساعة ونصف على مجيئك وليتك تجئ قبل ذلك لأراك بسرعة.

جاء محمد، سلم علينا وسألنا عنك، قلت له أنك قادم فى الساعة الواحدة، ودعوناه لأن يشرب ما يريد على حسابنا، أخبرنا أن الجو سيئ جدا وشديد الحرارة وأن الإنسان لم يعد يطيق ملابسه التى تحوطه، سألنى بنصف عينه هل أحبك حقا، نظرت إليه أنا أيضا بآخر عينى وقلت له لم استقر بعد على هذه المسألة ويبدو أننا نلهو، وأننى أظن أن كل شىء سينتهى قريبا، قال أنه يظن ذلك أيضا. سألنى هل قرأت الحظ اليوم ؟ وإنه يبدو أن برج الجوزاء قد وقع فيه زحل وأن الحرب بناء على ذلك لابد أن تنتهى فى خلال عامين وأن امرأة احترقت وقال أخوها أن زوجها أحرقها وشهد الناس عكس ذلك، ولكن أخاها مصر على أن زوجها أحرقها، بعد ذلك مر الوقت ونحن صامتون، رأسى مستند إلى الحائط وأنا انظر إلى الباب وانتظرك، لكن بقى الآن ساعة وعشر دقائق، أخيرا نظر محمد إلى ساعته وقال أنه لابد له من الذهاب، وأومأ إلينا فأومأنا إليه بأعيننا وأعطانا ظهره وسار.



www.alkottob.com

قلت لمنى : ما رأيك فى أن نقوم إلى أى مكان ونأتى فـى الموعـد ؟ قالـت : وهـو كـذلك قمنـا وأخـذنا الحقيبـتين علـى كتفينـا وسـرنا بـبطء إلى الخـارج نادانـا الجرسون فنظرت إليه وقلت أننا سنعود بعـد قليـل، خرجنـا وكـان الـشارع متـسعا ويصل إلى السماء ولا شـىء يحـده، وضـعت ذراعـى فـى ذراعهـا وسـرنا بـبطء بـين الناس، قالت : أين نذهب ؟ قلت : حيثما تذهب بنا أقـدامنا، ومـا رأيـك فـى أن نزور مديحه فى عملها ؟ قالت : وهو كذلك. ذهبنا إلى العمارة وصعدنا، قال زميلها الجالس أنها خرجت، تركناهم ونزلنا وأصبحنا فـى الـشارع ثانيـة، لا وقـت يمـر، وتمنيت فى ذلك الوقت أن أكـون فـى أوتـوبيس متـسع لـيس بـه نـاس ولا كراسـى وأرضه متسخة وليس به سائق ولا عجلة قيادة، مقفل، ليس بـه أبـواب ولا نوافـذ، يجرى بى كأسرع شىء فى العالم ويتخبط فى الأشجار فيـدفعنى إلى كـل النـواحى، وأتخبط فيه حتى أقع وأنا لا أرى شيئا من الظلمة، ويظل يدحرجنى من كل ناحية إلى الأخرى حتى أغيب عن الوعى، ولا أستطيع أن أفتح عينـى أو أتـذكر العـالم أو الدنيا، وتمنيت لو أكون وحدى فى حجرة مغلقة ومنعزلة لأظل أدور جيئة وذهابـا، وعيناى فى الظلام ولا يتبين لهما أى شىء وأظل أدور جيئـة وذهابـا حتـى يتوقـف عقلى عن التفكير.

ورأيت أننى بعد واحد وعشرين عاما فى هذا العـالم فـإن كـل مـا عرفتـه أن النيل يجرى من الجنوب إلى الشمال وأن الرياح تأتى من الشمال وأن المراكـب ترفـع الشراع إذا كانت قادمة مـن الجنـوب وتعتمـد علـى التيـار أمـا إذا كانـت آتيـة مـن الشمال فإنها تنشر الشراع.



www.alkottob.com

قلت لمنى ما رأيك فى الدنيا ؟ نظرت إلى لا شىء ولم تجبنى ثم تنهدت، وتذكرت وأنا أشعر برغبة فى البكاء أننى أصحبك معى إلى كل الأماكن ووجهك دائما ينظر لى ولا يبتسم، وأننى أجدك أمامى واحكى لك كل شىء وأشكو لك، لكن الوقت بطئ ولا يمضى، قلت لمنى : هل نعود ؟ قالت : نعم.

أخيرا رجعنا إلى المقهى وجلسنا فى مكاننا الأول، كنا نستند كلتانا إلى الحائط ونتبادل النظرات بصمت وصبر، أخيرا كنت أقول آهة ارتياح وعيناى عليك وكنت أنت قادمًا.

وعرفت وأنا أنظر فى عينيك أنك آت وستذهب وستعدنى بالعودة مرة أخرى وتذهب بعدها. وربما لا تجئ.

القاهرة ٢٤- ٨ -١٩٧٢



www.alkottob.com

# الغـيرة الحــب المـرض الألــم السلام الرحمـة

**( تمهيد )**

عندما أحبك فإنما أريد أن تنظر لى وأن تنظر إلى السماء والأرض والناس وكل الأشياء، وأن تحب كل الأشياء، وحينئذ فإننى أحتويك، أضعك فـى بطنـى وألـدك فى اليوم السابع، أحملك وأطير بك بعيدًا فوق البساتين والمدن والصحارى، أحط بك فى البحر الأزرق وأحميك من عقبان الصحارى والغابات والمدن والبساتين، أبنى لك بيتًا من البوص عند طرف الغابة وأضع لك فيه الزهـور والكتـب والموسـيقى والألـوان والطين والسماء والبحر والنجوم والشجر والقمـر والـشمس وكـل مـا تحـب وتهـوى، وألون جدرانه بألوان الطيف واصنع لك فراشا مـن أجنحـة النجـوم وأدعـوك بالليـل والنهار وأعد النار حتى تأتينى بالصيد، أقبلك فتهتز الـسماء والأرض، يعطينـى الله كل القدرة والقوة والخلود، أحلم بك فى الليل وأنت تنام فـى هـدوء، أتـرك شـعرى حتى يلامس الأرض أغطيك، أمنحـك الهـدوء والـسلام والـسكينة، أمنحـك الحـب والغضب.



www.alkottob.com

**بيان عما حدث فى زواج ربيع من أمينة :**

فى ذلك المكان البعيد لا شىء يحدث، فقط سوى بعض الأعراس فى أوانها من كل دورة زمنية، واليوم هو عرس الشاب الذى طالما تمنته كل فتيات البلدة، واللاتى ينظرن الآن بعين الحسد لعروسه الجميلة الصغيرة الفتية والشىء الغريب أن النجوم فى سمائهم كانت أكثر عددا من النجوم فى سمائنا. ( قلت للرجل العجوز أنهم يحرموننا من النجوم، وأن النجوم فى سمائهم أكثر بكثير من النجوم فى سمائنا وأنهم يسلطون الكشافات الكبيرة فى الطرق المتسعة حتى لا نرى النجوم، ويملئون الطرق المتسعة ذات الكشافات الكبيرة بالضوضاء لكى لا نستطيع أن ننام أو نهدأ ).

واليوم هو الدخلة، وبالأمس كانت الجلوة، وقبل الأمس كانت الحنة.

فى يوم الحنة ذهبنا إلى العروس، خضبنا يديها وقدميها بالحناء، وخضبنا أيدى الأطفال والنساء اللاتى يشعرن بألم فى أيديهن بسبب كثرة استعمال المياه فى الغسيل والتنظيف، ثم أوقدنا الشموع حول قدمى العروس وغنينا لها ونحن ندق على الطبل.

وفى اليوم التالى ألبسنا العروس وزيّناها، وجاء العريس وأعطاها هدية الزواج، وجلس قليلا معها ثم ذهب إلى بيته، وذهبنا مع العريس وخضبنا يديه وقدميه، وفى اليوم الأخير ذهب العريس ليحضر العروس إلى البيت، وركبا التاكسى وطافا بالبلدة ثم حضرا إلى البيت واستقبلناهما.



www.alkottob.com

وضعوا الطشوت أمام قدمى العروس لتخطو فيها، لكن العروس لم تخط فى الطشوت وتخبطت وهى تحاول أن تتفاداها غنينا ورقصنا، وبدأ الرجال يضعون نقوطهم، ولكن الشىء الذى لا أفهمه هو أنهم بعد ذلك قالوا لنا اذهبوا، ولكنهم ظلوا منتظرين.

**فقرة أولى..**

البيت الطينى البعيد، تحت السماء المتسعة المليئة بالنجوم، وأنت تركب الدابة وترحل، وتظل النجوم تدور حول بعضها، قلت لك فى ذلك الوقت أن تبقى وأن تترك الأشياء الكثيرة، ولكنك لم تكن تهتم بأى شىء، وكان الشىء الهام جدا هو أن ترى العرس، وكان الشىء الهام أيضا هو أن أعرف لماذا طلبوا منا أن نرحل ولكنهم ظلوا منتظرين.

أمينة فتاة شقراء، شعرها كسبائك الذهب، عيناها نجمتان مضيئتان، وعندما تضفر شعرها تضحك الشمس للدنيا، وعندما تبكى أمينة فإن السماء تمطر دموعا غزيرة، وكانت أمنية تضحك وترسل شعرها يوم تزوجت، كانت الدنيا كلها تضحك، وكانت فتيات البلدة ينظرن إلى أمينة، وكن يقلن أنه لا يليق بربيع غير أمينة ولا يليق بأمينة غير ربيع.



www.alkottob.com

( أحمل طفلى، أخطو إلى الشمس، تداعب أجفانى حين يأتى خيط الضوء إلى عينى، العالم ينظر من فوق التل، من الشارع البعيد، وأنا أحمل طفلى وأخطو إلى الشمس، وأحلم.

حين يأتى خيط الضوء إلى العالم، الناس تسير وتقف وتبيع وتشترى وتذهب إلى أعمالها، وأنا أحمل طفلى، وأخطو إلى الشمس، وأحلم.

أقف أمام قناة الماء، أعرى طفلى، أداعبه، أضعه فى قناة الماء، الماء يغمره، والشمس تداعب أجفانه بخيوط الضوء، طفلى يضحك، أرفعه إليها، أضعه فى التراب، التراب يلتصق بجسده الصغير، طفلى يضحك )

أتلمس فى الليل طريقى، أتحسس الجدران الكبيرة، أضغط مفتاح النور، أنظر إليك وأنت تنام كطفل كبير، أجلس أمام المدفأة، أتحسس بيدى شعرك ووجهك.

**فقرة ثانية..**

صناعة الأثاث مربحة، لا تنس أنك لست مضطرًا لشراء الأخشاب الجيدة، فالخشب المضغوط والمغطى بقشرة الخشب عظيم جدًا ومناسب للعصر ويعيش، لكن ربما كان من الأفضل أن تضع فى اعتبارك أن أثاث العروس مثلاً يجب أن يكون جميلاً، ولو أن المسألة على أى حال سيحددها المبلغ المدفوع، ولكن فى النهاية فإنه يمكنك أن تضع بعض اللمسات الأخيرة اللطيفة والتى لن تكلفك كثيرا ولكن سيبدو



www.alkottob.com

أن الأمر قد تكلف ثمنًا مرتفعًا إلى حد ما، وإذا كنت تنوى أن تعمل فى هذا الأمر فيجب أن تضع فى اعتبارك عدة مسائل، التشطيب مثلا، ولو الخارجى على الأقل، وهذا هام جدا، ولكن الوقت سيتحكم فى المسألة فى النهاية. هل تصدق ؟ لقد اتفقت على صنع هذا الأثاث منذ ستة أشهر قسمًا بالله، ولكن ما العمل ؟ لعنة الله على المخدرات ومن جلبها. غدًا جلوة العروس ولابد أن يكون الأثاث معدًا ليتم وضعه فى المنزل. لا أعرف ما أهمية وجود مثل هذا الكم من الأثاث إذا كانت العروس ستذهب إلى بيت حميها، وأثاث ثلاث غرف كاملة، من أين سيأتون لها بمكان ؟ لقد بنوا خصيصًا نصف طابق أعلى البيت. هل تظن أن العروس ستكون جديرة بأهل العريس ؟ إنها والحق يقال فتاةٌ طيبة، وأيضًا هى حاصلة على الشهادة الإعدادية، فتاة طيبة ومثقفة، ولكن بينى وبينك، جنس النساء هذا ليس له أمان على الإطلاق، ولا تستطيع أن تخمن كيف ستصبح أخلاقها بعد أن تضع مولودها الأول فقط، فقد تتحول إلى شىء آخر تماما، ولو أن هذا أيضًا ليس مؤكدًا. آه يا إلهى، غدًا جلوة العروس، ومن المؤكد أن الأثاث لابد يكون معدًا على أى حالٍ من الأحوال، وابنى مريض وأظن أنه مصاب بالتيفود، فقد ارتفعت حرارته ثم انخفضت مرتين متواليتين، عمومًا نحن نعرف علاج التيفود، ولكنه لابد أن يحضر العرس، فهو يحب هذه الاحتفالات، أظن أنه من الممكن أن يذهب لو ارتدى ثيابا ثقيلة، ألا ترى ذلك أيضا ؟ لعنة الله على المخدرات ومن ابتدعها. اسمح لى يا أخى أن أحذرك من المخدرات، إياك أن تستسلم لها، ولكن فى الحقيقة فإنك ربما لا تستطيع أن تقاوم، عندما تجلس هناك فى المقهى وترى صاحبة المقهى، ولا أعرف كيف يمكن لهذه المرأة أن تعيش هكذا بدون رجل، وأن تكون بهذه القوة، إنك لا تستطيع بالتأكيد أن تجلس فى المقهى دون أن تدخن المخدرات، نظرة واحدة من



www.alkottob.com

تلك المرأة ويجلس الصبى أمامك ويرص لك الحجارة، لن تستطيع أن تقاوم، هذا الصبى اللزج كم أكرهه، الوحيد الذى لا يهمه الأمر هو محمد، إنه يستطيع وحده أن يقاوم تلك المرأة، ولا يجرؤ الصبى أن يجلس أمامه دون أن يطلب ذلك بنفسه، لا أدرى كيف يمكنه أن يفعل ذلك ؟ وأظن أن السبب الوحيد هو أنه لا يهمه الأمر، وفى الحقيقة، ولا أى أمر آخر. سأطلب إليك طلبًا هامًا، امنعنى من الذهاب إلى المقهى هذه الليلة على الأقل، فلا بد أن ينتهى العمل، ساعدنى يا أخى، اخلط المعجون أو.. أقول لك، سأفعل أنا هذا الأمر وعليك أن تقوم بالباقى، سأساعدك فى الصنفرة أيضا وعليك الدهان، ولكن أسرع فى عملك، لا تهتم كثيرًا بجودة التشطيب، فليس هناك وقت كما تعلم، ولكنك فى الحقيقة تبدو ماهرًا جدًا، سأقول لهم أننى استدعيت استورجى خصيصًا من المدينة، إن أمهر استورجى فى البلدة لن يفعل ما فعلت أنت. أين تعلمت هذه المهنة ؟ سأقول لك شيئا، لماذا لا نعمل سويًا ؟ لو عملنا سويًا فسنعمل أشياء رائعة. ولكن أسرع بالله عليك فغدا جلوة العروس، وكما تعرف فلا يمكن أن يمر الغد دون أن يكون الأثاث موضوعًا هناك فى البيت، ولكن ابنى مريض ولن يحضر العرس، ولكنك لم تخبرنى أين تعلمت هذه المهنة، ويبدو أنك تعرف كثيرًا من الأشياء، وفى الحقيقة أنك ربما تعرف كل شىء، الله أيضا يعرف كل شىء، هل توافق على العمل معى ؟ لو عملت معى فأعدك أنك ستكسب جيدا، لكننى حينذاك سأكون مضطرًا لتحذيرك من المخدرات لعنة الله عليها.



www.alkottob.com

**فقرة ثالثة..**

البيت الطينى الصغير البعيد القائم فى وسط الحقل الممتد، نجمع الحطب ونوقد النار، الشاى المعد على نار الحطب هو أجود شاى فى العالم، وربما سبب الجودة هو مهارة الصانع، وربما كان السبب هو الظلام الشديد.

( أضع طفلى فى التراب، طفلى يجرى، يدب فوق الأرض، يمسك بخيوط الضوء، يقفز فوق الجسر ويضحك، يأخذ الشمس بيديه ويداعب بها جفونى ).

أتحسس فى الليل طريقى، أتحسس الجدران الكبيرة، الجدران كبيرة وعالية أيضا، ( الرجل العجوز ينظر إلى، أصابع يديه طويلة ومعروقة، أصابع يديه ترتعش وهو يوزع قطع المخدر على حجارة الجوزة، ينفخ فى الجوزة فيندفع منها بعض الماء إلى الأرض، ويضع الحجر الأول، يكسر الفحم فى المصفاة قطعا صغيرة، ينفخ فيها فتتوهج وتتطاير شراراتها، يضعها بحرص فوق الحجر ثم يبدأ فى التدخين، يحكى لى حكاية الرجل الشاذ جنسيا الذى استدرج بعض صبيان المدرسة إلى بيته واعتدى عليهم ).

**فقرة رابعة..**

ربيع هو أفضل فتيان القرية على الإطلاق، رجل ليس كمثله رجل، مثالى، مستقيم، طيب الأخلاق، هادئ وخجول، إذا مر بامرأة غض من بصره. ولو أنهم يحكون عنه حكاية غريبة، وربما كانت مجرد إشاعة، والحكاية ببساطة انه فى



www.alkottob.com

إحدى المرات جاءت امرأة لزيارة أمه، امرأة معروفة من القرية بطيب أخلاقها واستقامتها، كما أنها متقدمة فى العمر إلى حد ما، وفى ذلك اليوم لم تكن والدته موجودة فى البيت، والغريب أن الإشاعة ـ ومن المؤكد أنها مجرد إشاعة ـ تقول أن ربيع حاول الاعتداء على هذه المرأة، ولأنها امرأة طيبة الأخلاق ومستقيمة، فقد صرخت مستغيثة، وكما قيل فإن ربيع خاف مما قد يحدث من عاقبة ذلك الأمر فجرى خارجا من البيت، فلما لم يجد أحدًا أسرع بالوقوف فى متجره الصغير الملاصق للبيت، وكأن شيئًا لم يحدث. ولكن فى الحقيقة فإن هذه الإشاعة تبدو غريبة بالنسبة لأخلاق ربيع الطيبة، ولذلك فمن المؤكد أنها ليست صادقة على الإطلاق، فربيع هادئ وخجول،إذا مر بامرأة غض من بصره، كما أنه يحب أباه وأمه، ويحترم أخاه الأكبر، ويحترم كل من هو أكبر منه سنًا من رجال البلدة، ولا يعبس فى وجه أحد، هو مبتسم دائما، وأمين لا يغالط الناس فى بيع أو شراء، وما قد يبدو من ذلك أحيانا فهو إنما خطأ غير مقصود بالطبع، كما أنه لا يضيع وقته فى الذهاب إلى المقهى ولا يدخن المخدرات، بل يفضل أن يبقى فى المتجر حتى الثامنة مساء ثم يغلقه ويذهب لينام على الفور. وهو يتحدث بصوت منخفض دائما، لكنه شجاع وقوى، له وجه صامد وصابر، وعندما يقف ربيع فى متجره الصغير فان كل من يمر به يلقى عليه السلام. وحينئذ فان ربيع يرد أحسن الرد، ويسأل عن الصحة والأقارب، والكل يسأل عن صحته وصحة والدته العجوز الطيبة، وربيع يتعامل مع الناس بحب ولا يمنع عنهم أى شىء من بضائعه ولا يخفيها، ولكن المشكلة الكبرى كانت يوم حدثت أزمة السجائر، وقلَّت حصة ربيع من الدخان الجيد، وكانت الحصة بالكاد تكفيه هو وأخيه وصديقه الحميم، وفى ذلك الوقت كان التجار الآخرون يبيعون السجائر بسعر زائد عن التسعيرة المحددة، لكن ربيع



www.alkottob.com

كان أمينا، ولم يكن ليقبل أن يفعل مثل هذا الأمر، ولذلك لم يبع لأحد. وكان يفضل فى هذا الوقت أن يبيع الأنواع الرديئة والكيروسين وإبر المواقد. وفى الحقيقة فقد كان ربيع حقا هو أفضل شباب القرية، وكان كل الناس يحبونه، وعندما كان يسير فى الليل فان الناس كانوا يعرفون خطوته، وكانوا يلقون عليه السلام.

**فقرة خامسة..**

صاحبة المقهى امرأة فى الأربعين، أرملة طويلة القامة وبدينة، وجهها مستدير كالبدر، عيناها واسعتان ومكحولتان، صوتها قوى يسكت الرجال، وليس لأحد سلطان عليها، حتى ابنها الرجل الفتى ذو الشوارب الكثة لم يستطع أن يقول لها أى شيء عن ترك مثل هذا العمل وإسناده إلى أى أحد آخر، وفى الحقيقة فإنه لم يكن معروفا لأحد مَنْ مِنَ الرجال يستطيع وحده أن يستحوذ على هذه المرأة.

ولصاحبة المقهى عينان قويتان، فيهما نظرة قوية وحادة، وعندما تتلفت تبدو صلابة ظهرها للجميع. لم يكن لامرأة فى القرية مثل ظهر صاحبة المقهى، ظهر مستقيم وصلب، يقف فى رشاقة على أردافها، ويكفى أن تتلفت حتى ينظر الرجال إلى الأرض منتظرين، أما إذا ارتفع صوتها وهى تنظر فى عين أحد الرجال فإنه لا أحد يعرف ما الذى يمكن أن يحدث.

صاحبة المقهى لها ابنتان، فى مثل رقة النسيم العذب، ولهما أخٌ رجلٌ قوى لا تستطيع إحداهما عصيانه، حتى عندما أمرهما ألا تذهبا إلى العروس فى يوم



www.alkottob.com

الجلوة، فإنهما أطاعتا فى صمت، وكان يؤرقهما أنهما قد تجدان الغريبين اللذين دخلا المقهى بالأمس.

وكان الرجلان الغريبان قد اتجها إلى المقهى بالأمس، ووقعت عيونهما فى عيون البنتين ووقعوا أربعتهم فى الحب، وقضت الفتاتان ليلةً لا نوم فيها ولا راحة، وكل منهما تصف صاحبها للأخرى، وتشكو همها، وفى النهاية تمنت كل منهما لو تتزوج من رجلها، وتمنتا أيضا لو تقع أبصارهما عليهما غدا فى جلوة العروس، ولكن عندما أمرهما أخوهما الرجل القوى بعدم الذهاب إلى الجلوة، فإنهما أطاعتا فى صمت وعلى الفور، ولم تتفوه إحداهما بكلمة، وكل ما استطاعتا أن تفعلاه هو أن تجلسا فى حجرتهما وتبكيان.

ولصاحبة المقهى صبيٌ لخدمة الزبائن، فتى نحيف له عينان جاحظتان إلى حدٍ ما، له نظرة خبيثة وصامتة، فى جيبه المخدرات وكل شىء، ماهر فى ترتيب الحجارة وإعداد الجوزة، ما إن يجلس أحد فى أى مكان من المقهى حتى يأتى إلى جانبه وربما يجده فجأة دون انتظار، ينظر إلى يديه فقط نظرة صامتة، ولا تحمل شيئا، يعرض خدماته وهو يخبط على جيبه، يعد الجوزة وله النَفَس الأول، وكل الرجال يذهبون إلى المقهى ويدخنون، أما النساء فهن لا يدخن، اللهم إلا العجائز اللائى يدخن المخدرات وهن جالسات فى الليالى المقمرة والمظلمة على أبواب بيوتهن، كذلك الفتاتان الرقيقتان ابنتا صاحبة المقهى لا تدخنان إلا فى الليل بعد أن تطمئنا على خروج أخيهما أو نومه وبعد أن تغلقا باب الحجرة وشباكها، وكل



www.alkottob.com

الرجال يصمتون أمام المرأة البدينة صاحبة المقهى، ويخفضون رؤوسهم ويشتهونها دونما إفصاح، ولكن ابنها الرجل كان يفطن أحيانا إلى هذا الأمر ولا يستطيع أن يتكلم وكان الاصطدام الأكبر حين أمرت ابنتيها بالذهاب إلى أمينة فى جلوتها لتوصيل النقوط لأنها متعبة ولا تستطيع الذهاب، وضعت فى يد الابنة الكبرى خمسة عشر قرشا وأمرتهما أن تذهبا، لكن الابن والأخ الرجل القوى اعترض بأنه أمرهما بعدم الذهاب، وعندما نظرت إليه غضب، وأسرع بدخول حجرته مغلقًا الباب خلفه بشدة.

ولبيت صاحبة المقهى حديقة خلفية، مليئة بأشجار الكمثرى والبرتقال، وفى هذه الحديقة أيضا فتاتان رقيقتان كبراعم الشجر، تجريان بين الأشجار وتقطفان الثمار وترسلانها مع ابن البستانى الطفل إلى الغريبين الجالسين فى الحقل البعيد، وتجلسان فوق الأشجار، وترفعان أيديهما إلى النجوم فى الليل، وترسلان شعورهما فى خفية عن أخيهما وتلعبان، وتحتضنان ابن البستانى الطفل، وتتمنيان لو تتزوجا حبيبيهما الغريبين.

**فقرة سادسة..**

محمد غريب. غادر القرية وذهب إلى الحقل، بنى بيديه بيتا من الطوب يتكون من حجرة واحدة، وجعل له أربع نوافذ تطل على الجهات الأربع، الأرض الممتدة، والأرض الممتدة، والأرض الممتدة، والأرض الممتدة، وجعل له بابًا واحدًا يطل على جهةٍ واحدة، ووضع بالبيت كل ما يمتلك من الكتب والرسوم والجيتار



www.alkottob.com

الوحيد، وآلى على نفسه ألا يذهب للقرية إلا للضرورة القصوى، وعليه فقط أن يرسل أحد الأطفال لإحضار الطعام من بيت أمه بالقرية، ثم لإعادة الأوانى وإحضار الدخان.

محمد غريب، كل ما فيه غريب، عيناه غريبتان ووحيدتان، شعره المجعد المحيط برأسه، لحيته البنية، ومن المؤكد أنه لم يكن مناسبًا لأى وجه من الوجوه لحية كلحية محمد إلا وجهه وحده.

يداه غريبتان بأصابع طويلة خشنة وهادئة، تتحرك باسترسال وبساطة، ولكنها تبدو متوترة حقا على الجيتار، ليست أصابعه فقط بل محمد كله، عيناه تلمعان وشعره يبتل بالعرق، وعندما ينتهى من العزف يضع جيتاره جانبًا وينظر إلى الأرض، يعقد يديه فى حجره ويقضى بضع لحظات من الصمت، وإذا تحدث إليه أحد فى مثل هذا الوقت فإنه يتحدث بهدوء شديد وباقتضاب، وفيما يبدو أنه لا يحب إذ ذاك أن يتحدث ولا أن يوجه إليه حديث، وربما أيضا ألا يدور حديث حوله ولكنه أيضا فى نفس الحالة لا يمكنه أن يمنع أى حديث، ولا أن يثور ضد أى شخص.

والأطفال يمرون على بيت محمد فى الحقل ويلقون عليه السلام. ويجلسون أمامه وهو يعزف على الجيتار، ويسألونه عن الرسوم الغربية المعلقة على جدران الغرفة، ويخجلون من السؤال عن رسم واحد لامرأة ورجل، ولا ينظرون إلى هذا الرسم إلا خلسة عندما يكون منتبها للعزف أو القراءة أو صنع الشاى.



www.alkottob.com

وكل أهالى القرية يمرون على بيت محمد وهم ذاهبون إلى حقولهم ويلقون عليه السلام، وعندما يحضر أصدقاؤه الأغراب من المدينة البعيدة فان أى أحد من أهالى القرية يرشدهم إلى بيت محمد، ويلقون عليهم السلام كل صباح وهم ذاهبون إلى حقولهم.

وعندما يحضر أحد أصدقاء محمد من المدينة البعيدة فإنه فى هذه الحالة فقط يأخذه ويذهب إلى القرية، يمشيان فى شوارعها الضيقة المتعرجة المتسخة ويجلسان فى المقهى، وحينئذ فان أى أحد من الرجال الجالسين يصر على جلوس محمد وصديقه معه، وصاحبة المقهى لا تتعرض لمحمد وأصدقائه بأى شىء، ولا حتى صبى المقهى، لأن محمد غريب ومحترم، وأيضا فإنه لا يشتهى المرأة صاحبة المقهى ولا ينظر إليها خلسة، فهو كما يبدو ليست عنده أية مشكلات من هذه الناحية، وفى مرات كثيرة كان محمد يغادر القرية والحقل، وربما يذهب إلى المدينة ويعود بدون أن يحدث أى اختلاف، ولم يكن محمد يعزى فى الموتى أو يحضر الأعراس إلا عرسًا واحدًا، هو عرس ربيع فقط.

ذهب محمد الغريب وصديقه الغريب إلى عرس ربيع، وكانا يتمنيان أن يريا هناك الفتاتين الرقيقتين كالنسيم العذب ابنتى صاحبة المقهى، ولم يكن أحدهما يجرؤ على أن يخاطب واحدة منهما أو يقول لها ما يريده، ولكنهما تمنيا فقط لو يستطيعان الزواج منهما، لكن المسألة كانت تبدو بعيدة الاحتمالات، لأن أحدهما لم يكن ليجرؤ أن يتفوه بكلمة فى هذا الأمر، وحتى عندما حدث أن استطاعت الفتاتان أن تحضرا ذات يوم لزيارتهما فى الحجرة الواقعة فى الحقل والمطلة على الجهات



www.alkottob.com

الأربع، فإن محمد الغريب وصديقه الغريب قد شغلا طوال الوقت بإعداد مكان مريح لجلوس الفتاتين وصنع الشاى لهما.

وعندما مضت الأيام بعد ذلك فإنه لم تتوفر مثل هذه المسألة لمرة ثانية أبدا، إلى أن غادر محمد الغريب وصديقه الغريب القرية والحقل بلا رجعة.

**فقرة سابعة ( وأخيرة )..**

الجدران كبيرة وعالية أيضا، وسوداء فى الليل، وكذلك السماء والأرض والناس والأعمدة وقطع الحجارة، أتحسس فى الليل طريقى، أتحسس وجهك ويديك واحتضنك، اكشف وجه الطفل النائم، امسك بخيوط الشمس وانسجها ثوبًا كبيرًا كبيرًا.

أتلمس فى الليل طريقى، هل تعرف ؟ فى تلك البلدة الصغيرة كنت اجلس فى الحقل، وكانت الأرض واسعة، كانت الأرض تمتد إلى السماء، أما نجومهم فقد كانت أكثر عددا من نجومنا، قلت للرجل العجوز حين جلسنا فى ركن المقهى ـ وكان بلا سقف ولا جدران ـ هل تعرف ؟ إن نجومكم أكثر عددا من نجومنا، وعندما كنا فى العرس كان كل شىء يبدو جميلا، وكنا نغنى ونضحك، ولكن الشىء الذى لم افهمه هو أنهم قالوا لنا بعد ذلك : يمكنكم أن تذهبوا الآن، فقد انتهى الأمر. لكنهم ظلوا جالسين.



www.alkottob.com

أتحسس وجهك ويديك واحتضنك، أحملك وأخطو بين الناس، أحملك إلى الشمس وأحلم، أضعك فى الماء واحلم، أتعرى وأنام فى التراب، يلتصق التراب بجسدى، أنظر إلى خيوط الضوء تحمل طفلى، أنظر إليها تداعب جفونى، آخذ الشمس بين يدى، انسجها ثوبا كبيرا كبيرا، أقبل خيوطها واحدًا واحدًا، وأحلم.

الهرم ـ مارس ١٩٧٦



www.alkottob.com

# أن تنحدر الشمس

كل واحد فينا كان يدور فى مكانه ويبحث بين أشيائه وحده، وعندما سأل كل منا الآخر، عرفنا أننا نبحث عن أرض جديدة، وخضرة، ورجال، وشمس لا تحجبها الأشياء الميتة، عرفنا حينئذ ما الذى يجب أن نفعله، أمسكنا بمعاولنا وبدأنا نزيح الركام، لكن بعد وقت طويل، اهترأت المعاول، وهزلت أجسامنا، ولم نكن قد أنجزنا شيئًا بعد.

* * *

كنا ذاهبين فى الرحلة البعيدة، كنا فرحين وكان كل شىء جميلاً، وعندما كنا فى منتصف الطريق، بدا أننا لابد أن نعود، وكان لابد حينئذ أن نصمت، وكل ما أحزننى أننى كنت أريد أن أحضر لك الزهرة التى تحبها، وأننى لم استطع أن أقول لك ذلك عندما سألتنى ما الذى أحزننى عندما عدنا من منتصف الطريق.

وكل ما حدث هو أننى نظرت إليك مرات عديدة، وفى كل مرة كنت أعود فأخفض عينى، وأعلم وأنت تنظر إلى ناحية بعيدة أننى إذا قلت فسأقول الأشياء كلها، وإذا سكت فسأكتمها كلها، وما سوف يحدث هو أننى سأذهب إلى الحافة



www.alkottob.com

البعيدة، وأجلس أنظر إلى الانحدارين، وأترك الهواء يعبث بى، وأترك وعـدًا لله ألا أفكر فى هذا الأمر لمدة ثلاثة أيام، أو سبعة أو أى عدد، ثم فـى مـران شـديد أعـود كما ذهبت، ولكن حتى هذا لم أستطعه، فعندما ذهبت فـى الطريـق أصـابنى الـذعر والحزن، وقلت أننى لا أستطيع، ففى كل المرات التـى ذهبـت فيهـا لم أضـع هـذا الوعد، وكنت أعد فقط بأننى سأضعه فى المرة القادمـة، وفـى المـرة الأخـيرة كتبـت كلمة واحدة شكوتها إلى الله : " أنت أيها الوهم الغريب القاسى، ما الذى أتى بـك ثانية."

وكان الوهم الغريب القاسى يحتـوى الأشـياء كلـها، ولم أسـتطع أن أعـرف كيف أهرب منه أو إليه، لكننى عرفت أنه يحتوى الزهور والصدق والحب والـشجر والرقة والعطف والأرض والجنس والنباتات الغريبة ويحتـوى الأشـياء كلـها، وأننـى يجب أن أقطع هذا الأمر وإلا فسوف أنشق كحافتى نهر أو أنحدر مع الشمس.

* * *

عندما كانت تنحدر الشمس كانت الأرض تصطخب، النهر هـدأ واسـتكان، لكن السماء كانت تلتقى بالأرض فى نفس المكان وهى تصطخب.

كنا واقفين عند حافة النهر، نرقب الشمس، وعندما انتهـت ولم يبـق منهـا شىء نظر كل منا إلى الآخر، وتـسرب إلى قلوبنـا الخـوف والـصمت، ورأينـا الـسماء حينذاك وهى تضئ بألف لون فى اللحظة الأخيرة، والنهر يستمر بلا كلال.

الله كبير، أكـبر مـن الـسماء كلـها، وأكـبر مـن كـل الأشـياء، ويعـرف كـل الأشياء، ويسكن فى الأماكن كلها.



www.alkottob.com

حتى هناك فوق الحافة البعيدة، عندما أذهب، لا أحد يكون هناك أبدًا، ولا فى أى وقت، سواى، ولكن الله يسكن هناك.

مرة واحدة كان الأطفال هناك، وكانوا يجرون ويقفزون ويختبئون خلف الصخور، ويظهرون فوقها، ويضحكون، حينذاك وقفت بعيدًا، وعرفت أننى الآن لا أستطيع، فقد كان الأطفال يمتلكون كل شىء، ولم يكن أحد يستطيع أن يمتلكهم.

كان كل ما هنالك أننى يجب أن أحضر الأشياء القديمة كلها معى، وعندما أكون فى هذا المكان وحدى، والله فقط موجود ويعرف، ادفنها، وكنت أعلم فى كل المرات أنه يسألنى، ولكن بنظرة واحدة فقط، ويشيح عنى، لأنه هو فقط عرف أننى الآن أكذب.

الكذب كم هو صعب، أصعب من أن أفعل شيئًا يجب وأحب أن أفعل غيره، حينذاك كنت أصرخ كثيرًا، وفى كل المرات، صرخت كما لم يحدث أبدًا، ولكننى حتى بعد ذلك لم أستطع أن أنتزع منى ذلك الكم القابض من الفزع والدهشة.

فى ذلك اليوم ذهبت إليه، قلت له أننى آسفة لأننى كذبت، وأننى أرجو أن يغفر لى، وأننى سأكذب مرة أخرى، مرة واحدة فقط، أو عدة مرات، لكننى سآتى ذات يوم وأعد بأننى لن أكذب ثانية.

وعرفت حينذاك أننى لن أستطيع أن أرفع عينى فى عينيه، ولا أن أعد بأى شىء، ولا مجرد أن أذهب تجاهه مرة ثانية.



www.alkottob.com

تجاهك أنت أيضًا، لا أذهب تجاهك، اللوم والحيرة والتساؤل وأنا لا أجيب ولا أذهب تجاهك، وأنت لا تسمع صرختى.

واليوم أراك، لست ككل الأيام الأخرى، حكيت لى عن الحدائق الواسعة والشمس، كل يوم كانت هناك حدائق واسعة وشمس، وكنت أراك هناك، أما اليوم فقد تغيرت الأشياء، وهناك رأيتك حقًا، فى نفس الحجرة الضيقة، لا تنفذ الشمس إليكم وأنتم جالسون، عيناك بدتا كما لم تكونا أبدًا.

* * *

الرجل الغريب جاء فى اليوم الصعب، بنى بيتًا فوق الربوة، واعترش السماء والأرض، أمر ونهى فأطيع، أقام الأسوار الحديدية فى الطرقات، ووعدنا بالأرض الجديدة، حينذاك جلسنا منتظرين، لكنكم كنتم تذهبون واحدًا بعد الآخر ولا ترجعون، وعندما سألنا عنكم لم يرد أحد، قمنا واقفين ونظرنا فى كل ناحية، حولنا وفى كل أفق، وعيوننا يتعبها الضوء القوى، ومر الوقت ولم يعد أحد، وعندما يئسنا، جلسنا منتظرين.

أما أبناء الأرض الأقوياء فقد وعدونا بأرض أخرى، أرض جديدة، وكانت مليئة بالطحالب والملوحة، لكنها كانت وسعة وتمتد إلى البحر، وهناك كان طعم الهواء حلوًا، لا مرارة فيه ولا دخان.



www.alkottob.com

قفز الأطفال حولنا ولعبوا، وقالوا نحن نمتلك الأرض، وذهب أناس كثيرون يعملون، يعتلون ويحتطبون، ويكسرون الحجر، قال الأطفال والرجال الآخرون نحن نمتلك الأرض، كانوا رجالا أقوياء، ولدتهم الأرض والنباتات البرية، وقالوا تعالوا معنا، نزرعها وإياكم، وننتظر الخضرة والثمار، إذ ذاك رأيتهم ورأيت الزرع يترعرع تحت الشمس المضيئة وينمو ونحن نحمل إليه الماء ونحميه من العربان.

مر الوقت ونحن ننتظر فى كل ناحية، ننتظر عودتكم، وعندما يئسنا، جلسنا منتظرين، ننظر نحو الشمس وننتظر انحدارها وهى تذهب إلى آخر الأرض.

وعندما كانت تنحدر الشمس، كانت السحب وآخر السماء تنغمس فى اللون الكئيب القاسى، والنهر يهدر برتابة ويبتلع اللون نفسه فى أعماقه القائمة.

أقف فى مكان صعب، انتظر لحظة العودة، الأرض تشتهى الماء، متشققة وجافة، أدوس الشقوق بقدمى، الملح والطحالب والسطح الخشن، الرجل الغريب جاء فى اليوم الصعب، رجاله فى كل الطرقات، عيونهم على كل الناس، أروح بينهم وأعود، أقفز بينهم وأضحك وأتمزق، وعيونهم جامدة بلا إجابة.

ثلاث نخيلات ارتفعن فوق الربوة، أشار الأطفال إلى النخيلات وضحكوا، قالوا النخيلات نبتن وكبرن، لكننا كنا جالسين على الأرض الترابية، ننظر إليهم بلا فهم، قالوا النخيلات نبتن وكبرن.

أقف فى مكان صعب، قلت لك أننى أقف فى مكان صعب، لكننى لم اقل لك كل شىء، لآن كل شىء أيضا كان مليئا بالصعوبة، لكن عندما نظرت إليك فى نفس اللحظة، وجدت انك تعرف، وهكذا لم يعد هناك أى كلام جديد.



www.alkottob.com

لكن ما الذى حدث تماما عندما أقبل الرجال ؟

أقبل الرجال ممتطين صهوات الشمس، والشمس مقبلة بلا كلال إلى حافة الهوة، كان لابد أن نقوم، لكننا انتظرنا حتى تعود فى الصباح التالى.

كيف لنا أن ننام ونصحو ونحن لا نريد أن ننام ونصحو ؟

وفى الليل والظلام كان أفضل ما نفعله هو أن نمارس الحب، وكان عظيما أن نمارس الحب، لكن المؤسف هو أننا فى نفس الوقت لا ندرى ما يحدث من أشياء أخرى.

وعندما أقبل الصباح، نظرنا إلى بعضنا، ولم يعرف أحد ما الذى بدا على الآخرين، لكن كان هناك شىء واحد متضح للجميع، أننا يجب أن نبدأ، والآن.

لكننى رأيت، رأيت والدنيا مضيئة، وكل شىء كان واضحا لى أكثر مما يجب، وكان الخطأ الأكبر أننى رأيت.

نظرت لك، ورأيت أيضا أنك تعرف وترى، ألقيت بمعولى وجريت بعيدا عنكم، ذهبت إلى هناك، إلى نفس المكان، إلى الحافة البعيدة، حافة الربوة المقام عليها البناء الضخم، نظرت إليه لكننى عدت فأجفلت، وجدت أننى لم استطع للمرة الأخيرة، كان هناك شىء واحد، هو أننى لن أعود أبدًا بعد ذلك اليوم، قلت ذلك للربوة وللسماء ولله ولكل شىء هناك، ورجعت وأنا اجمع الأزهار فى الطريق، وألهث.

كنتم تقفون هناك، تسمعون حكاية الرجال، أبناء الأرض البرية، حكاية الأعرابى الذى زرع النخيلات الثلاث، وعندما كنا ننظر نحوهن، كنا نحس بأننا



www.alkottob.com

نتنفس ملء صدورنا، كنا نتقدم نحوهن، نبحث عن الماء، لكن الشمس كانت تتعدى منتصف السماء، والنخيلات الخضراوات وسط الأرض الصفراء الممتدة يهزهن الهواء، نظرت إليك لكنك كنت ماضيًا بلا توقف، عيناك تتعلقان بأعاليهن الفتية.

أخيرا سرنا نحو الأرض الجديدة، الأرض متشققة وجافة ومليئة بالطحالب والملوحة، لكنها واسعة ورحبة، تسع الناس كلهم وتكفيهم، يعملون فيها ويقتلعون الطحالب، فتعطيهم الثمار والخضرة، ظللنا نسير نبحث فيها، وعندما وصلنا إلى النخيلات الثلاث وجدنا الماء، إذ ذاك جلسنا نلتقط أنفاسنا، وننظر إلى الأفق المتسع.

لا تلد الشمس إلا الأشعة المضيئة، والأمطار تلد الأرض والخضرة، والرجال يلدون الصمت، ويلد الأطفال الحب والمقدرة.

والبيت المقام هناك فوق الربوة يحجب الشمس، لذلك نرميه بالحجارة، نجرى صوب الشمس، ونصعد فوق الصخور، نحادث الرمل والقبور القديمة، ونرميه بالحجارة، الحجارة قديمة كالقبور والرمال، صامتة كالسحب الرمادية عند الغروب، هادرة كالسحب الحمراء عند آخر الأرض.

وذلك الرجل الغريب المقيم هناك، فى نفس ذلك البيت المقام فوق الربوة ليحجب الشمس، كان يكذب، وكان الكذب كبيرًا جدًا، وقاسيًا، وعندما رأينا الأرض التى وعدنا بها، عرفنا تمامًا أنه يكذب، وكان لابد أن يعرف كل الأطفال، وكان لابد أن يروها كما رأيناها، صغيرة ومظلمة، وجدباء، لا بيوت فيها ولا آدميين، لا حب ولا رحمة.



www.alkottob.com

والأرض الأخرى التى وعدنا بها الرجال الأقوياء، أبناء النباتات البرية، كانت مليئة بالطحالب والملوحة، لكنها كانت واسعة وتمتد إلى البحر، وهناك كان طعم الهواء حلوًا، لا مرارة فيه ولا دخان، هناك وضعنا رحالنا، وجلسنا فوق الربوة، وعندما أظلمت الدنيا، أخذنا الأطفال فى صدورنا، لأن رءوسهم كانت متعبة.

وعندما كانت تنحدر الشمس، كنا نراها جيدا، لكننى عرفت حينئذ، أننى لابد سأترككم يوما هناك، وسأذهب وحدى أنحدر معها..

الهرم ـ أغسطس ١٩٧٧



www.alkottob.com

# دمـــــية

وضعت فى ذلك المكان القصى، أحيانًا كان يأتى أو يلقى نظرة من بعيد، يسوده الاطمئنان لحظة، أما الآخرين فقد كانوا يتفرجون على المعروضات كلها، كانوا يتحركون جيئة وذهابًا وجلوسًا، ويتحدثون عن الأشياء الكثيرة غير ذات الأهمية، كان يتحرك معهم أحيانًا، ويتحدث معهم أحيانًا، وأحيانًا كان يقف مبتسمًا أو ضاحكًا أو صامتًا، أو كان يقفز ويرقص، ويقفز إلى الأعلى ويرقص.

بعد قليل أتى وسألنى: كيف حالك؟ قلت له أننى بخير، قال: كم أنتجت؟ أريته الأشياء التى أنتجتها، قال: حسن، فى الحقيقة أنه ينقصك بعض النشاط، وكان يجب أن تنتجى الأشياء الأخرى أيضًا.

* * *

تركنى وجلس بعيدًا، أخذ يقرأ بعض الوقت، وأخذ يتحدث بعض الوقت، قام وأخذ يدور ويتفرج، ابتعد كثيرًا ولم أعد أراه، اهتممت بما فى يدى، وبالنظر حوالى، بعد قليل جاء يقفز ويرقص، قال: انظرى ما فى يدى، كان يمسك بيده دمية، عندما يدير مفتاحها تدور بعض الوقت وتصدر صوتًا مزعجًا، قفز مبتعدًا،



www.alkottob.com

أخذ يفرج الآخرين ويدير مفتاحها، ويقفز ويرقص، أخيرًا عاد ينهج، أدارها ووضعها بجانبى، قال: قبل أن تتوقف تكونين قد ملأتها.

* * *

نظرت إلى الدمية، كرهتها بشدة وهى تدور بلا توقف، قررت ألا أملأها مرة أخرى وأن أهتم بما فى يدى، ظلت الدمية تدور، بعد قليل بدأت تهدأ، ظلت تهدأ إلى أن توقفت، تركتها متوقفة، كان ينظر من هناك لكننى اهتممت بما فى يدى، جاء إلىَّ وقال: توقفت الدمية ولم تملئيها، قلت: نعم. قال: لماذا لم تملئيها؟ قلت: أننى أكرهها ولا أريدها أن تدور، قال: بل لابد أن تدور، املئيها. أمسكت بالدمية وأدرت المفتاح، بدأت الدمية فى الدوران، ابتعد، قررت أننى أكره الدمية ولن أملأها مرة أخرى، وعندما يعود ويسألنى سأقول له بصراحة أننى أكرهها، لكن الدمية عندما توقفت عاد وسألنى: لماذا لم تملئيها؟ أخبرته أننى أكرهها فقال: بل أديريها. أمسكت بالدمية وأدرتها وابتعد، أخيرًا قررت أننى لابد أن أحطمها، حطمتها. بعد قليل عاد وقال: لماذا توقفت الدمية؟ قلت له: لأننى حطمتها، قال: لماذا حطمتها؟ قلت: لقد قلت لك أننى أكرهها ولا أريدها أن تدور.

غضب غضبًا شديدًا، قال: لماذا حطمتها؟

قال: كان لابد أن تدور الدمية.

قال: تعالى.



www.alkottob.com

أمسك المفتاح وملأنى، وقال لى دورى. درت، فرح بشدة، أمسكنى فى يده وراح يقفز ويرقص، ذهب إلى كل واحد، أخذ يدير مفتاحى ويفرجهم ويقفز ويرقص، ظللت أدور وهو يقول لى دورى، أخيرًا عاد ووضعنى وقال لى دورى: بلا توقف، ابتعد بين الناس وراح يقفز ويرقص.

الهرم - ١٩٧٥[1]

[1] ) هذا النص مكتوب على الكمبيوتر وليس تصويرًا لطبعة الكتاب نفسها، أضيف إليه صورة الغلاف وصفحة رقم الإيداع. كما أضيفت قصة "دمية"، التى لم تنشر فى الكتاب.



www.alkottob.com

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٥٦٢ / ١٩٨٥

ISBN ـ ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ٥٣٢ ـ ٥

www.alkottob.com

# مختارات فصول

## تصدر أول كل شهر

« أن تنحدر الشمس » . . هى المجموعة القصصية الأولى للأديبة الواعدة « سحر توفيق » . وهى كاتبة ، فيما نرى ، ذات مذاق قصصى خاص ، فى الأدب النسائى المصرى ، القصصى منه بصفة خاصة . فقد استطاعت هذه الأديبة أن تطوع رؤيتها للعالم ، المشحونة بالحزن ، والمفعمة بروح الغناء ، وتجاربها المتجانسة الرؤى ، فى قصص لها مذاق الشعر لغة ، ومواقف ، ولحظات ، وفى اختيارات لزوايا القص ، تتداخل فيها الأزمنة ، ويلتحم فيها الداخل بالخارج . إنها واحدة من أديبات السبعينيات ، وأكثرهن تميزا ، وتعبيرا عن روح هذه الفترة ، الممزقة بين الواقع ، وبين الأحلام .

www.alkottob.com